«العَقْلُ العَرَبيُّ» و«الثَّقَافَةُ التَّنْمَوِيَّة»

٥-١) مَدْخَل:

لقد وَقَفْنَا - فيما سَبَقَ من فُصُولٍ - على بعْض طُرُوحاتِ «النَّهْضَويّين» واسْتِشْرَافَاتِ «التّنْمَويّين» لنجد أنّ هَاجِساً قويّاً يَتَجَذَّرُ في كُلِّ تلك التّنْظيرات، وأنّ مُعاناةً فِكْريّةً تَتَغَلْغَلُ في أحْشَاءِ تلك الاسْتِشْرَافَاتِ وما يُرافِقُهَا من عُمُوميّاتٍ تَضْرِبُ الحَيْرَةُ في أطْنَابِهَا لتُبَيِّنَ أبْعَادَ «أَزْمَةٍ ثقافيّةٍ» بامْتيازٍ، ويَحْدُثُ ذلك في ظِلِّ وَاقِعٍ عربيٍّ يَتَدَحْرَجُ إلى القاع بينما تَنْطَلِقُ «الحركة العَالَميّة» إلى المِجَرَّات؛ وكُلُّ هذه الأبْعَادِ - دون اسْتِثْنَاءٍ - تتوقَّفُ أمام حقيقةٍ بدهيّةٍ لا مناص عنها تماهى معها كثيرون من المُثقَّفين العرب، ويُوجِزُهَا محمد محفوظ فيقول: (إنّنا في هذا العَصْرِ الزّاخِرِ بالمَعْلُومات وتقْنياته المُتَعَدِّدَة، لا يُمْكِنُنَا أنْ نَخْتَارَ هل نَدْخُلُ هذا العَصْرَ أمْ نُغْلِقُ وَاقِعَنَا عنه، وإنّما من الأهميّة توفير كُلِّ الشُّرُوطِ الضّرورية لاسْتِيعابِ تطوُّراتِ هذا العَصْرِ وتقْنياته حتى يَتَسَنَّى لنا المُشارَكة الطّبيعيّة في عَصْرٍ لا محلّ فيه إلاّ للمُجْتمعات الحَيّة، الزّاخِرَة بالكفاءات والطّاقات الخَلّاقة)[٤٣]. ويُؤكِّدُ لؤي صافي أهميّة «الشَّرْطِ الثَّقافيّ» لـ«الرُّؤيةِ التَّنْمَوِيّة» بقوله: (يَلْزَمُ الأَخْذُ بعَيْنِ الاعْتِبار، عند تَطْوير مَشْرُوع تَنْميةٍ فَعّالٍ، العَلاقَة الحميمة بين ثلاثة جَوانِب من الحياة الاجْتماعيّة: النّفْسيّ، والثّقافيّ، والإنْتاجيّ. بمَعْنَى أنّ «حركة التّنْمية» تتوقَّفُ على توفُّر مَجْمَوعَةٍ من الشُّرُوطِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة)[١٦].

أمّا فيما يَتَعَلّقُ بتلك «الشُّرُوطِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة» فلا بُدَّ لها أنّ تَصُبّ في ما وَصَفَهُ غازي القصيبي[١٠] بأنّه: («شيءٌ ما» لا بُدَّ منه لنجاح العمليّة التّنْمَويّة)، وهو:

(ذِهْنيّةٌ مُعَيَّنَةٌ يُمْكِنُنَا إذا ضَمَنَّا وجودها أنْ نَتْرُكَ لها حُريّةَ التّعامُلِ مع التّفاصيل وَاثِقين من قُدْرَتِهَا على الوصُولِ إلى حُلُولٍ، ويَسْتَحِيلُ في غيابِها أنْ نَنْجَحَ في حَلّ المُعْضلات التي تُشَكِّلُ جُزْءاً لا يتجزَّأ من كُلٍّ تَحَوُّلٍ تَنْمَويّ). وأمّا محمد أزهر السمّاك، فيرى أنّ أحد المبادئ التي يجب أنْ تَحْكُمَ الهدف نحو تَحْقيقِ «إسْتراتيجيّة العمل الاقْتصاديّ العربيّ» هو: (الارْتِقاء بالمُسْتوى الثقافيّ والعِلْميّ للفَرْدِ العربيّ إلى مُسْتوى مُعايَشَةِ العَصْرِ بما يُؤهِّلُهُ للإسْهَامِ الجَادِّ في الإنْتاج، وزَرْعِ الثِّقةِ بالنّفْسِ في الاسْتِهْلاك)[٩].

لقد رأينا - أيضاً -، في سِياق الفُصُولِ السّابقة، أنّ أبْرز الشُّرُوط الضّرورية للتّفاعُلِ الجَادّ مع مُعْطيات «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» والامْتِصَاصِ الوَاعِدِ لها، يَتَمَثَّلُ في ثقافةٍ حيويّةٍ نَشِطَةٍ قَادِرَةٍ على اكْتِسَابِ «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة» التي تَنْقُلُهَا من حالات السَّمَرِ وليالي الأُنْسِ وثقافة اللّفْظِ إلى فِعْلٍ يتحرَّكُ على الأرْضِ، ليُغَيِّرَ مَعَالِمَ الحياة وأنْمَاطَ التّفاعُل؛ وبذلك تكون «الثَّقافةُ» هي «الوَسَط الفَعَّال» اللازم لتَحْقيقِ «النَّهْضَة» وتَحْريك «التّنْمية» والتّفاعُلِ الإيجابيّ مع ظَاهِرَةِ «العَوْلَمَة»، وهذا ما أَدْرَكَهُ أحمد زويل وهو يتأمَّلُ مُحاولات «النّهْضَة» في تاريخ «العَقْلِ العربيّ» ليُطالِبَ بإصْلاحٍ ثقافيٍّ شَامِلٍ بقوله: (فعلى صعيد «الثَّقافة» تَتَطَلَّبُ «النّهْضَة» إصْلاحاً ثقافيّاً وَاسِعاً، وأَعْنِي هنا بالإصْلاح الثّقافيّ...إصْلاح حالة النّفْسِ والعَقْل، أيْ تَرْميمُ «الضَّميرِ العربيّ» مع تَرْميم «العَقْلِ العربي» سَواءً بسَواء)[٧٠].

أمّا عمليّةُ «تَرْميم الضَّمير العربيّ» فلدينا الكثير من القِيَمِ والمفاهيم والعِبَرِ التي يَزْخَرُ بها تُرَاثُنَا وتَضِجُّ بها أدبيّاتُنَا، وأمّا عمليّةُ «تَرْميم العَقْلِ العربيّ» فهي في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلى وَقْفَةٍ مُتأنِّيةٍ؛ فعمليّةُ «تَرْميم العَقْل العربيّ» تَسْتَدْعِي توفيرَ أدْواتٍ وعناصِر وخاماتٍ ذات خصائِص مُعَيَّنَةٍ لكي تتفاعل عمليّتا «تَرْميم الضَّمير» و«تَرْميم العَقْل» في «تَرْكيبةٍ جَدَلِيّةٍ»، بحيث يُغَذِّي كُلٌّ منهما الآخَر لتَصْحيح المسار، وتَطْوير العطاء، وتَفْعيل الطّاقات، وشَحْذِ الهِمَم؛ فتتفاعل قِيَمُ الدِّين، وعطاءاتُ الفِكْر، وكَوابِحُ التّجْربة، وآفاقُ العلوم، ونَشْوَةُ الابْتكار؛ لتَنْصَهِرَ كُلُّهَا في بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ مِعْطَاءَةٍ قَادِرَةٍ ليس فقط على «تَرْميم العَقْلِ العربيّ»، بل وأهمّ من ذلك وأعْمق، إعادةُ تَشْكيله وصَوْغُ مُكَوِّنَاته ليتواءَمَ مع خصائِص «الاسْتِجَابَةِ» اللّازِمةِ لمُجابَهَةِ «التَّحَدِّي».

٥-٢) «العَقْلُ العربيّ»: تَرْميمٌ أمْ إعادةُ بِنَاء؟:

فـي ضوء ما رأيناه في الفُصُول السّابقة مـن الخصائِص المُمَيِّزَةِ لـ«العَقْلِ العربيّ» ومُمَانَعَتِـهِ الشّديدةِ لـ«شُـرُوطِ العَصْر»، فإنّ الحاجةَ ماسّةٌ إلى عمليّـةِ «إعادة بِنَاءٍ» لهذا «العَقْلِ» تَبْدَأُ بتَقْويضِ مفاهيم مَغْلُوطَةٍ وتداعياتٍ مَشْرُوخَةٍ وانْفعالاتٍ مُهَيْمِنَةٍ، وتَشْرَعُ في تَأْسيسِ قَواعِد صَلْدَةٍ من الرُّؤى المنْهجيّة، والتّفاعُلات المنْطقيّة، والمعايير المُنْضَبِطَة، والتَّوجُّهـات الحيويّـة؛ لتَدْفَعَ - في النّهاية - إلى بَلْـوَرَةِ مفاهيم «ثقافـةٍ تَنْمَوِيّة» وتَأْصيلِ قِيَمِهَا وأفْكارِها.

وتَبْـرُزُ أحَد ألْغَـازِ «العَقْلِ العربـيِّ» في حقيقةٍ مُحَيِّـرَةٍ فبينما يُفْتَرَضُ أنْ يكون ما يُعايشُهُ هذا «العَقْلُ» من تُرَاثٍ أصيلٍ مُتَمَثِّلٍ في «المَنْهَجِ الرّبانيّ» مُنْطَلَقاً لإنْجازاتٍ غزيرةٍ فـي الكَمِّ وفريدةٍ في النّوْعِ علـى مُخْتلف الأصْعِدَة، إلاّ أنّ «العَقْلَ العربـيّ» أخْفَقَ بامْتيازٍ؛ والغريـب أنّ أُمماً أُخْرى لا تَمْلِكُ مثل ذلك «التُّرَاثِ» العظيـم اسْتطاعتْ أنْ تَشُقَّ طريقها بمَنْهَجيّـةٍ وعَقْلانيّةٍ وإنْتاجيّةٍ. وليس ذلك بمُسْتَغْـربٍ؛ فسُنَنُ الله لا تُحَابِي أحداً؛ فعنْدما شَخَّصَتْ تلك المُجْتمعاتُ أمْرَاضَهَـا، وتَعَالَتْ على انْفعالاتِها، وكَبَحَتْ حماقاتِها، وتَمَثَّلَتْ ثقافةَ عَصْرِهَا، انْدَفَعَتْ - في عُنْفوانٍ - لتَصْنَعَ حَاضِرَهَا الزّاهِرَ ومُسْتَقْبَلَهَا الوَاعِد، وكما يقـولُ زين العابدين الرّكابـي: (إذا أَرَدْنَا نَهْضَةً حقيقيّةً وعظيمـةً فليس أمامنا إلاّ إتْقان التّعامُلِ مع السُّنَنِ الكونيّة والاجْتماعيّة، وإذا كان الشّمْسُ والقَمَرُ لا يَنْكسِفَانِ لمَوْتِ أحدٍ، ولـو كان ابن نبيٍّ، فإنّ قوانيـن الفضاء والبِحَارِ والصِّناعة والزِّراعَـةِ والإدارة والعمل لن تتعطَّـل، ولن تُغَيِّرَ خَصَائِصَهَا من أجـل المُسْلِمين مهما كان عَدَدُهُمْ، ومهما كانت درجة صلاحِهـم، وخُلاصَةُ هذه النُّقطة أنّ الرُّسُوخَ في «العِلْم بالسُّنَنِ الكَونيّة والاجْتماعيّة» هو من الأُسُسِ العُظْمَى لـ«الثَّقافة العِلْميّة» ومن صميمِها)[١٤].

أمّا «العَقْلُ العربيُّ» فقد غَرِقَ في لُجَّةِ إشْكَاليّةٍ كُبْرى عبْر تاريخه؛ فقد كانتْ «الكلمةُ» هي أداته وسِلاحه وغايته ومُنْتَهَى تطلُّعاتِه؛ فصنعتْ له - بخصائِصها المُمَيِّزَةِ وعُنْفوانِهَا

الكَامِنِ - أبْطَالاً من دُخَانٍ، وعَمَالِقَةً من وَرَقٍ، ورُوَّاداً من فُقّاعَاتٍ، وساعدها على ذلك خيالٌ خِصْبٌ، وعَاطِفَةٌ مُتأجِّجَةٌ، وشُحٌّ فَادِحٌ في الأبْطَالِ والعَمالِقَةِ والرُّوّاد الحقيقيّين[٥٢].

٥-٢-١) من مُحَدِّدات «العَقْل العربيّ»:

إنّ «العَقْلَ» - بطبيعة تَكْوينه - لا يتعاملُ مع مُحيطِه مُبَاشَرَةً، بَلْ عبْر أدواتٍ ومُحَدِّداتٍ هي المفاهيم والقِيَم والتّعْريفات والمُصْطلحات والمَعْلُومات؛ فإذا كانتْ هذه المفاهيمُ والقِيَمُ والمَعْلُوماتُ قَادِرَةً على التّعامُلِ مع أزمات المُجْتمع وتحدّيات الوَاقِع، اسْتطاع «العَقْلُ» أنْ يُنْتِجَ «الاسْتِجَابَةَ» الوَاعِيَةَ المُحَقِّقَةَ للأغْرَاضِ المَنْشُودة. ولذا فمن المُهِمّ - في هذا المِضْمَارِ - أنْ نُؤكِّدَ ضرورة إجْرَاءِ دِراساتٍ مُسْتفيضةٍ في الجَوانِبِ النّفسيّة والتّاريخيّة والاجْتماعيّة والثّقافيّة التي تُحِيطُ بـ«العَقْلِ العربيّ» وتَرْفِدُهُ في مسيرته وتَحْليله وتَعْليله وأفْعاله ورُدود أفْعاله، ولا بُدّ أنْ تتوافَرَ لهذه الدِّراسات أمانةٌ ونزاهةٌ وجُرْأةٌ وشجاعةٌ تَسْمَحُ بالغَوْصِ في تلك الأعْمَاقِ المَشْحُونَةِ بالانْفِعَالِ التي يُفَجِّرُهَا «العَقْلُ العربيُّ» في كُلِّ مَأْزِقٍ وفِتْنَةٍ وأزْمَةٍ ومِحْنَة. لا يَنْبَغِي - في هذا الإطار - أنْ نهاب تلك الصَّيحاتِ التي تَطْلُعُ علينا مُحَذِّرَةً من «جَلْدِ الذّات»؛ فالخَوْفُ ليس من «جَلْدِ الذّات»، ولكنّه من فُقْدَانِهَا وذَوَبَانِهَا وضَيَاعِهَا وتَشَرْذُمِهَا، فلا يَخْتَلِفُ عَاقِلان على أنّ من الأفْضل أنْ تَقْسُو على من تُحِبّ، بَدَلاً من أنْ تَتْرُكَهُ نَهْباً لآفاتِ الزّمان. ذلك عن القَسْوَة، وأمّا إنْ كان الأمْرُ هو مُجَرَّد إقْرارِ حقائِق تَتَجَلَّى عند كُلِّ مُنْعَطَفٍ، فإنّ الأمْرَ يُصْبِحُ أشدّ إلْحاحاً. وهكذا نجدُ أنْ من أبْرز ما يُمَيِّزُ «العَقْلَ العربيّ» هو قُدْرَتُهُ الفَذّةُ على الجَمْعِ بين المُتناقضات؛ فهو - على سبيل المِثال - يُمْعِنُ في جِرَاحٍ غَائِرَةٍ في أعْمَاقِ الزّمن، وهو لا يَفْتَأُ يَتَلَذَّذُ بنَكْئِهَا في كُلِّ مُنْعَطَفٍ، غير آبِهٍ بالتّغيُّرات التي حَدَثَتْ على مُسْتوىً كَوْنيٍّ فبَدَّلَتْ خصائِصَ المُجْتمعات، وحَوَّرَتْ معاييرَ التّفاعُلات.

إنّ «العَقْلَ العربيَّ» يَتَمَتّعُ بذَاكِرَةٍ فريدةٍ من نَوْعِهَا تُؤلِّفُ بين نَقِيضَيْن؛ فهي من ناحيةٍ قَادِرَةٌ على أنْ تُصْبِحَ «طويلة المدى» لتَسْتَدْعِي كُلَّ فِتَن التّاريخ ومَثَالِبه الماضية في لحْظة انْفِعَالٍ لتُوَظِّفَهَا للاسْتِعْدَاءِ والفِتْنَةِ والمزيد من الاشْتِعَال، وهي في الوَقْت

نفْسه قَادِرَةٌ على أنْ تُصْبِحَ «قصيرة المدى» لتَعْفُو عمّا سَلَفَ بالأمْسِ القريبِ من كَوارِث ونكباتٍ دون مُحَاسَبَةٍ أو مُساءَلةٍ أو كَشْفِ حِسَابٍ، وهكذا تَتَكَرَّرُ في كلتا الحالَتَيْن المآسي والأخْطاء، ويَعُمُّ البلاء، ويَصْدُقُ القول المَشْهُور: (ما أَكْثر العِبَر وما أقلّ الاعْتِبار).

إنّه «عَقْلٌ» قَادِرٌ على أنْ يَخْتَزِلَ كُلَّ التّاريخ والتّجارِب والمُعاناة في لحْظَةِ انْفِعَالٍ هَوْجَاءٍ، طَامِساً حَوَاسّهُ؛ لكي لا تَسْتَشْعِرَ الخطر الذي يُحِيقُ بها، فيَنْدَفِعُ ليُكَرِّرَ أخْطاءه على مدى قُرُونٍ، ويَدْفَعُ الثّمن من جديدٍ دون نَدَمٍ أو اتّعَاظٍ أو تَأَسٍّ؛ فالهزيمةُ هي العلامةُ الكُبْرى في هذا «العَقْل»، ولذا فهو يَهْرُبُ من انْفِعَالٍ إلى انْفِعَالٍ، وهو يتوقّعُ المُسْتحيل فيرى إمْكَانِيَّةَ تحقيق «شُرُوطَ الوَعْي» من «مُنْطَلَقَاتِ اللّاوَعْي». إنّه «عَقْلٌ» يلومُ الآخَرين على حِرْصِهِمْ على مصالِحهم، ولا يلومُ نَفْسَهُ لتَضْييعِه مصالِحه، ويتباكى على الماضي التّليد، ولا يَسْعَى لتَطْويرِ الحَاضِرِ وتَهْيئةِ المُسْتَقْبَل، ويَدْعُو إلى «الوَحْدَةِ» وما تُمَثِّلُهُ من قُوّةٍ ومَنَعَةٍ، إلاّ أنّه سُرْعَانَ ما يَنْزَلِقُ إلى خِلافاتِه الضّيِّقَةِ وصِرَاعَاتِهِ المَذْهَبِيَّةِ ونَعَرَاتِهِ القَبَلِيّة، وكأنّ تَعْريفَ «الوَحْدَةِ» عند «العَقْلِ العربيّ» هو الأَحَادِيّةُ في الرّأي، والاسْتِبْدَادُ في القرار!.

٥-٢-٢) في رُبُوعِ «الشَّعْوَذَة»:

لا بُدَّ أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «العَقْلَ العربيّ» يعيش «حالة شَعْوَذَةٍ»، وإنْ حَسِبَهَا «حالة تفاؤل»؛ فعنْدما تكون جُرْعَاتُ «التَّفاؤل» أكْبر من قُدْرَةِ اسْتِيعابِ «العَقْلِ» لها في مُسْتوياته المَنْطقيّة، فإنّها تَتَحَوَّلُ إلى ضَرْبٍ من ضُرُوبِ «الشَّعْوَذَةِ» التي لا يَضْبِطُهَا ضَابِطٌ عَقْليٌّ، ولا يَقْبَلُهَا وَاقِعٌ حياتيٌّ، ولا يُفَسِّرُهَا تَعْليلٌ مَنْطقيٌّ، ولكنّها تَدْخُلُ في إطار التّخيُّلات والتّوهُّمات والأمْراض النّفْسيّة؛ فعنْدما يَجْنَحُ «التّفاؤلُ» بحيث يَشُطّ عن مُعْطياتِ «الوَاقِعِ» ويتجاوزُ حُدُودَ «المَعْقُول»، فإنّه لا محالة يُصْبِحُ «حالة هَلْوَسَةٍ» جَانِحَةً في آفاقِ الخيال، ومُفْرِطَةً في توقُّعاتِها وحِسَاباتِها، بحيث تَحْتَاجُ إلى طبيبٍ مُخْتَصٍّ، أو تَسْتَدْعِي اللجوء إلى مَصَحَّةٍ نَفْسيّة!.

يقولـون إنّ الخَطَّ الفَاصِلَ بين «العَبْقَرِيّةِ» و «الجُنُـونِ» هو خيطٌ رفيعٌ، ولعلّه الخيطُ الرّفيـعُ نفْسه الذي يَفْصِلُ بين «التَّفـاؤلِ» و«الشَّعْوَذَة»؛ ففي الحالة الأولى يَسْتَمِدُّ الإنْسانُ مـن تفاؤلِـه عزيمةً صَادِقـةً للعمل السّديد، وقُـدْرةً مَنْطقيـةً للقِراءة الصّحيحـة للوَاقِعِ المعيشـ، واسْتِيعاباً دقيقاً للتَّخْطيطِ الحكيم، وتَنْفيذاً حريصاً للآليّاتِ الفَاعِلَة. وأمّا في حالة «الشَّعْوَذَةِ» فإنّ الإنْسان يَلْهَثُ وراء توقُّعاتٍ لا سَنَدَ لها في الوَاقِع، ويَنْتَظِرُ تَحَقُّقَ آمالٍ لا أساس لها على الأرْض، ويَتوقَّعُ أنْ تَتَبَدَّلَ الأحْوال، ويؤول إليه المآل دون جُهْدٍ أو عملٍ أو مُثابَـرةٍ، ودون مُراعاةٍ لحُدُودِ «المُمْكِنِ» و«المَعْقُولِ»، وضَوابِطِ الوَاقِعِ والمَلْمُوس، وظُرُوفِ «الزَّمان» و«المكان».

لقد تَغَلْغَلَـتْ خصائِصُ «الثَّقافة العربيّة» التّقْليديّة في نسيـج «العَقْلِ العربيّ» فراح يَحْسَـبُ أنّ «البلاغـة الإنْشائيّة» و«الجمـال الوَصْفيّ» و«التّأجيج الانْفعالـيّ» أدواتٌ كافيةٌ لتَغْييـرِ الوَاقِعِ وتَبْديلِ الحالِ وبُلُـوغِ المرام، وهذا الحالُ هو قِمّةُ «الشَّعْـوَذَةِ» حيث تُهَيْمِنُ القناعـةُ بأنّ كلماتٍ تَمْتَلِكُ المُحَسِّنَـاتِ اللفْظيّة، وخُطُباً تَحْمِلُ الصُّـرَاخَ والجَلَبَة، قَادِرَةٌ علـى تَحْريـكِ الوَاقِـعِ دون جُهْدٍ مَدْروسٍ، ومُثابَرةٍ دَؤوبـةٍ، وفَهْمٍ للحقائِـق على الأرْض، واسْتِيعابٍ لطبيعة التّحَدّيات.

إنّ «العَقْـلَ الجَمْعِـيَّ العربيَّ» يُريدُ صِياغـة الكَوْنِ وفْق «تفاؤله»، ولـذا فإنّ أهْله في مُخْتلـف حالاتهم النّفْسيّة - صُعُـوداً وهُبُوطاً - يَعْجَبُون ويَغْضَبُـون إذا لم تُسَايِرْ «السُّنَنُ الكَوْنيّـة» أمْزِجَتَهُمْ، ولم تُحَابِ عَواطِفَهُمْ، ولم تَتَمَلَّقْ انْفعالاتِهم، ولا شكّ أنّ هذا التَّصَوُّرَ العجيـب نَوْعٌ مُشِينٌ من أنْـواع «الشَّعْوَذَةِ الفِكْريّة» التي يَنْبَغِي التَّصَدّي لها بحَزْمٍ وبأدواتٍ مَعْرفيّةٍ كفؤة.

ليـت الذين يَهْتَمُّون بدِرَاسَةِ مـا أَسْموه «أَزْمَةَ العَقْلِ العربـيّ» يُولُون هذا الجَانِبَ من الأَزْمَـةِ اهْتِمامـاً مُكَثَّفاً، ويَسْعـون - بخِبْراتهم وجُهُودهم - ليس فقـط لدِراسة أبْعاد هذه «الأَزْمَةِ الفِكْريّة» عبْر «الإنْشائيّات» و«الكلاميّات» التي أَبْدَعَ فيها العربُ - قديماً وحديثاً -، وتُعْتَبَرُ - في حَدِّ ذاتِها - جُزْءاً من «الإشْكَالِيّة»، ولكن - أيضاً - عبْر طَرْحِ «برنامجٍ عمليٍّ»

يُفْلِحُ في تَقْليصِ حَجْمِ هـذه الظَّاهِرَةِ المَأْساويّة عبْر آليّاتٍ «ثقافيّـةٍ - تَرْبويّةٍ - إعْلاميّةٍ - عِلْميّـةٍ» تَنْمُـو بشَكْلٍ تراكُمـيٍّ لتُحَرِّرَ «العَقْلَ العربـيَّ» من مُعْتَقَلاتِ «الشَّعْـوَذَة» وحِصَارِ «المُحَسِّنَاتِ اللفْظِيّة»، وتُطْلِقُهُ في رِحَابِ «التَّفاؤلِ العَقْلانيّ» وعَوالِمِ «الإنْتاج الحيويّ».

قـد يَعْتَقِـدُ بعضُ المُتأمِّليـن أنّ ما يَنْتَـابُ الأُمّة - من فَتْـرةٍ إلى فَتْـرةٍ - من لَطْمٍ للخُدُود، وشَقٍّ للجُيُوب، ونَدْبٍ للوَاقِع، وبُكَاءٍ على الأطْلال، هو نَوْعٌ من «عَوْدَةِ الوَعْي»، ولكن هـذا اسْتِنْتَاجٌ لا يَدْعَمُهُ وَاقِـعٌ ولا تَسْنُدُهُ حقيقةٌ، فبضاعتُنا من «الشَّعْوَذَةِ» في كُلِّ الحالات وَاحِـدَةٌ؛ فعويلُنـا واحْتجاجُنا لا يتعاملُ مـع أسْبَابِ فشلنا الذَّاتيّ فـي مُوَاجَهَةِ التّحدّيات، ولكنّـه يَنْصَبُّ على شَتْمِ الأعْداء ولَوْمِهِـمْ؛ لأنّهم لم يُعْطُونَا حَقَّنَا من التّقْدير والاحْترام، ولم يتسابقوا إلى مَنْحِنَا ما نحن أهْلٌ له من عَدَالةٍ وتَكْريم!.

«الشَّعْـوَذَةُ» هي نَفْسُهَـا في كُلِّ الحالات؛ فنحن نُريدُ أنْ نَهْزِمَ الأعْداء بخيالٍ جَامِحٍ، وحماقـاتٍ رَعْنَـاءٍ، وقصائِد رَنّانَةٍ، وكُلّما الْتقينا في الميدان كانـتْ بضاعتُنا خَاسِرَةً، إلاّ أنّنـا نَعْتَقِدُ أنّ «السُّنَنَ الكَوْنيّة» ستتغيَّرُ في الجَوْلَـةِ القادِمَةِ عندما نُعيدُ الكَرَّة مَرَّةً أُخْرى بـ«المُقَدِّمَاتِ» نفسها، وتُصيبُنا الدَّهْشَةَ وتَهُزُّنَا الصَّدْمَةَ عنْدما نَحْصِدُ «النَّتَائِجَ» ذاتها!. إنّهـا «الشَّعْـوَذَةُ» بعَيْنِهَا فـي كُلِّ المقاماتِ والأحْـوال، وعلينا أنْ نَسْتَدْعِـي هنا مِثال دون كيخوتـه الذي أَوردناه في الفَصْـلِ الثّاني؛ فـ«المُجْتمعاتُ العربيّةُ» تعيشُ حالة «انْفِصَامٍ فِكْـريٍّ ونَفْسيٍّ»، وتراكُماتِ حِقَـبٍ من الاسْتِبْدَادِ والتَّخَلُّفِ والاتّكاليّـةِ والعَجْز؛ ولذا نَتَوَقَّعُ أنْ يكـون فصيحُ بياننـا، وإنْجازاتُ ماضينا، وبلاغةُ خِطَابِنَا، وجُنُـوحُ خيالنا، قَادِراً على قَطْعِ المسافات، وإنْجَازِ المُعْجِزَات، وتَحْقيقِ الرَّغبات!. وهكذا نجدُ أنّ «الشَّعْوَذَةَ» تَضْرِبُ أطْنَابَهَـا في كُلِّ حالٍ ومقامٍ ومقالٍ؛ فـ«العَقْلُ العربيّ» يُريدُ أنْ يَفْرِضَ شُرُوطَهُ على العَالَمِ بينمـا هو يَقِفُ على أبْـوابِ حضارتِهم يَسْتَجْدِي مُعْطياتِهـا، ويَسْتَهْلِكُ بضاعتَها، ويتبارى فـي اقْتِنَاءِ مظاهِرها، ولو انْقَطَعَ عن أصْحاب «العَقْلِ العربيّ» صُنْبُورُ مَاءٍ، أو تَعَطَّلَ جِهَازُ كَهْرباءٍ، لتَوَقَّفَتْ حركة حياتهم، ولما وجدوا بديلاً عن شِرَاءِ أو اسْتِجْدَاءِ ما يَحْتاجون إليه من تقْنياتٍ ومُنْتَجَاتٍ وقِطَعِ غِيَار.

خُلاصَـةُ القـول إنّ «العَقْلَ العربـيّ» يَحْتَاجُ إلـى «نَقْلَـةٍ نَوْعِيّةٍ» كُبْرى تَخْـرُجُ به من جِلْبَـابِ «الكلاميّات»، وأَسْرِ «الوِجْدَانيّات»، وهَيْمَنَةِ «الشَّعْوَذَة»، إلى دُنْيا «عَقْلَنَةِ التّفْكير»، ومَنْطقيّةِ التّحْليل، ووَاقِعيّةِ «التَّفاؤل» المُنْسَجِم مع سُنَنِ الخَالِقِ وإمْكَانَاتِ الخَلْق. بطبيعة الحال لا يُمْكِنُ الزَّعْمُ بأنّ السّاحة خَالِيةٌ من الجُهُودِ لسَبْرِ أغْوَارِ «العَقْلِ العربيّ»، وفَحْصِ «مَاهِيّتـه»، وإجْـرَاءِ «قِـراءاتٍ تَشْخِيصيّةٍ» تَهْتَـمُّ بالتّعرُّفِ على «علامـات العَقْلِ العربيّ» ومُحَدِّدَاتِهِ عبْر نَقْدِ خِطَابِه وفَحْصِ عُيُوبِه؛ فهناك - على سبيل المِثال - المُحاولةُ الجَادّةُ التي أخذها محمد عابد الجابريّ على عَاتِقِهِ ليُضِيفَ إلى أدبيّات «الفِكْرِ العربيّ» مَشْرُوعاً مُتَعَلِّقـاً بـ«العَقْـلِ العربيّ» - تَكْوينـاً وبِنْيَةً ونَقْداً -؛ فهو يرى - مُحِقّـاً - أنّه عبْر مُحاولات «النّهْضَة» المُتَعَدِّدَةِ المَشَارِب والمُتَنَوِّعَةِ الوسائِل، فإنّ: (ميدانٌ واحِدٌ لم تَتَّجِهْ إليه أصَابِعُ الاتّهـام بعُـد، وبشَكْلٍ جِدِّيٍّ وصَـارِم، هو تلك القُـوَّةُ أو المَلَكَةُ أو الإرادةُ التـي بها «يَقْرَأُ» العربيّ، و«يرى» و«يَحْلُمُ» و«يُفَكِّرُ» و«يُحَاكِمُ»...إنّه «العَقْلُ العربيُّ» ذاته)[٦٧]. ولا يُمْكِنُ أنْ نَنْسَـى - في هذا السِّياق - جُهُـوداً جَمّةً بذلها - منذ مُنْتَصف القَرْن الماضي - مُفَكِّرُون بقَامَـةِ زكي نجيـب محمود، ومالك بـن نبيّ؛ لتَلَمُّسِ مَكْمَنِ الـدَّاء عبْر تَفْكيـكِ «الحالة الثَّقافيّـة» وفَهْمِ مُقَوِّمَاتِهَا، كمـا أنّ هناك تلك «الأنْسَاق الثَّقافيّـة» التي طَرَحَهَا عبد الله الغذّامـي[٤٩] في مُحاولةٍ لتَشْخيصِ التّأثيرات والمُؤثِّرات في تفاعُـلاتِ «العَقْلِ العربيّ». وأمّـا يوسف أبا الخيـل فإنّه يَخْلُصُ، مُسْتَشْهِداً بمحمد عابـد الجابريّ في تَشْخيصه في كِتَابِه «تَكْوينُ العَقْلِ العربيّ»، إلى أنّ «العَقْلَ العربيّ» هو: (ذلك العَقْلُ «المُكَوَّنُ» من خلال المُحَـدِّدَاتِ التُّرَاثيّـة العربيّـة، سَواءً كانتْ لُغَويّـةً أو فِقْهيّةً أو كلاميّـةً أو تَفْسيريّةً، والتي طَبَعَـتْ «العَقْلَ العربـيّ» بطابعِها الذي جعله يُنْتِج، فيها ومن خلالهـا، عَقْلانيّته الخَاصّة التـي تَتَمَحْوَرُ، كما سنرى، حول القِيَم الأخلاقيّـة دون أنْ تَمْتَدّ، أعْني تلك العَقْلانيّة، إلى مُحاولـةِ اسْتِكْشَافِ «ذَوَاتِ» الأشْياء، سَـواءً كانتْ طبيعيّةً أو اجْتماعيّةً، باكْتِشَافِ العَلاقَةِ بين ظواهرِها وقوانينِها التي تَحْكُمُ صيرورة عملها)[٧١].

ولكـن، علـى الرّغْـم مـن كُلِّ الجُهُودِ الجَـادّةِ لفَحْصِ مُحَـدِّدَاتِ «العَقْـلِ العربيّ» وتَشْخيصِ مَاهِيّته، فإنّه - فـي رأْيي[٧٢] - بَقِيَ عَصِيّاً على التّقويـم، وعنيداً في التّعامُلِ

مـع صَرَامَةِ عَصْـرِه وضَخَامَةِ تحدّياته، ومُنْسَاقاً أبداً إلى طبيعتـه الانْفِعَاليّة النّرْجسيّة، ومُتْخَنْدِقَـاً في أنْمَاطِهِ الخَطَابيّة المَكْرُورَة، ومُتَتَرِّسَـاً بآليّاتِه التّائِهَةِ في بُطُونِ الماضي، ومُغَيِّبَـاً لشُرُوطِ المُسْتَقْبَل، ومُسْتَهْلِكَاً - بشراهـةٍ - لمُنْتَجَاتِ العَصْر؛ وهكذا أفْلَحَ في أنْ يعيشَ دَاخِلَ «الزَّمـن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِـدٍ؛ ممّا يَجْعَلُ تصوُّراتـه وتفاعُلاته أقْرب إلى «البَهْلَوَانِيّة» منْها إلى الجِدِّيَّة والحِكْمَة.

٥-٢-٣) «العَقْلُ العربيّ» من مَنْظورٍ فيزيائيّ:

إنّ «العَقْـلَ العربـيَّ» - فـي رأْيـي[٧٢] - لـم يَحْتَـجْ إلى بَذْل جُهْـدٍ كبيـرٍ ليَضُمَّ إلى مَخْزُونِـهِ مُصْطلحاتٍ حديثةً؛ لأنّه ليس في ذلك إشْكَالٌ أو تَعَارُضٌ مـع مُحَدِّدَاتِ «العَقْلِ العربـيّ»؛ فـ«صِنَاعَةُ الكلام» هي ما يتباهى به هذا «العَقْلُ» ويَفْخَر، ولذا اسْتطاع أنْ يلوك «مُصْطلحات العَصْر» فدخلتْ فـي قاموسِه مُصْطلحاتُ «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» و«اقْتصاديّاتُ المَعْرِفَة» و«نَقْلُ التّقْنية» و«التّنْمية المُسْتَدَامَة» و«ثَوْرَةُ المَعْلُومات» وغير ذلك كثيرٌ، ولكنّها كُلّهـا بَقِيَتْ فـي إطارِها الكلاميّ، حيـث فَشِلَ «العَقْـلُ العربيُّ» في تَرْجَمَتِهَـا إلى تجارِب مُتراكِمَةٍ وآليّاتٍ مَلْمُوسَةٍ وإسْتراتيجيّاتٍ مَدْرُوسَةٍ، وراح - بعْد ذلك وقبْله - يُسارِعُ الخُطَى إلـى كُهُوفِهِ التـي تَسْكُنُهَا الأشْبَاح، وتَرْتَعُ فيها الأوهام، وتَحْكُمُهَـا الانْفِعَالات. وهكذا وَقَعَ «العَقْـلُ العربيُّ» فـي مَأْزِقٍ مع عَصْرِه؛ ففـي الوَقْت الذي لا يَمْلِكُ فيـه أيَّ خياراتٍ تُذْكَر، ولا يُمْسِـكُ بمفاتيح التّأْثير على وَاقِعِـهِ ومُشْكلاتِهِ وتحدّياتِهِ العَالَميّة، فإنّه يُكَابِرُ في عدم الانْصِيـاع لقَوَاعِـدِ «اللُّعْبَةِ المُعَاصِرَة»، والالْتِـزَام بضَوابِطِهَا، وتَأْمِيـنِ المُتطلَّبات الدُّنْيا لتَحْقيقِ «النَّقْلَة النَّوْعِيّة» اللازمة، ويَنْصَرِفُ - كالعادة - نحو ما يُتْقِنُ ويُجِيدُ في الشَّكْوى والوَلْوَلَةِ والتَّمنِّي والتّنْظيرِ والانْغِمَاسِ في تَجَلِّيَاتِ «نظريّات المُؤامرة».

لقـد اسْتطـاع ألبرت آينشتايـن أنْ يَدْمُجَ «الزَّمان» مـع «الأبْعَـادِ المَكَانيّة» الثّلاثة، فأَصْبَـحَ «المكان» و«الزَّمان» في الفيزياء وَحْدَةً مُتفاعِلَةً يُؤثِّرُ أحدهما في الآخَر في أبْعَادٍ «زَمْكَانِيّـةٍ» أرْبعةٍ. وأمّا «العَقْلُ العربيُّ» فقد أَخْرَجَ «الزَّمان» من حِسَابَاتِه، فهو يَتَحَرَّكُ في فضـاء «الأبْعَادِ المَكَانيّة» تَارِكاً «الزَّمان» خَارِجَ الاعْتبار، أو هو يغوصُ في «البُعْدِ الزَّمَنِيّ»

مُتجاهِـلاً تَأْثيراتِ «الأبْعَادِ المَكَانِيّة». وبينما يَسْتَفيدُ أصْحـاب هذا «العَقْلِ» من مُنْتَجَاتِ العَصْـرِ ويَسْتَهْلِكُون مُعْطياتِه ويتشدَّقُون بمُصْطلحاتِه؛ إلاّ أنّهم لا يُنْتِجُون شيئاً يُذْكَر، ولا يَسْبِـرُون أغْوَارَ ما يلوكونه مـن مُصْطلحاتٍ هَبَطَتْ عليهم كما هَبَطَـتْ عليهم المُنْتَجَاتُ التِّقَنيّـةُ حيـث ليس لهم في صِناعتِهـا يَدٌ، وليس لهم فـي صِياغتِها تَأْثيـر. وأمّا عمليّاتُ الإنْتَـاجِ والاكْتِشَافِ والبَلْوَرَةِ والتَّطَوُّرِ فهي - بطبيعتها - عمليّاتٌ تراكُميّةٌ ومُعاناةٌ حقيقيّةٌ وتَجْرِبةٌ عمليّةٌ؛ وكُلُّ تلك العناصِر الجوهريّة، من تَأْسيسٍ وتَطْويرٍ وإنْتَاجٍ، تَخْرُجُ من رَحِمِ «الزَّمان» الذي جعله «العَقْلُ العربيّ» خَارِجَ الحِسَابَات.

مـا زالـتْ أفْـكَارُ امرؤ القيـس تَعْبَقُ في المـكان، وبُطـولاتُ عنترة بن شـدّاد تَأْسِرُ الوِجْـدان، وحَـرْبُ «دَاحِس والغَبْـرَاء» تُهَيْمِنُ على الأذْهَـان، وعطاءاتُ المُتنبّـي تُسَيْطِرُ علـى السِّجَالات، وهُمُومُ أبي فِرَاس الحمدانيّ تَكْتَظُّ فـي ساحة الانْفِعَالات، وليس لنا من مُعْطيـات «العَصْر الحديـث» إلاّ اسْتِهْلاك بضاعتِـه حتى تَفَوَّقْنَا علـى مُنْتِجيها في أوجه الاسْتِهْـلاك، وهو الأَمْـرُ الذي أصابهم بالإحْبَاطِ لعـدم قُدْرَتِهِمْ علـى مُجَارَاتِنَا في شَرَهِ الاسْتِهْلاكِ والتَّكَالُبِ على المظاهِر!.

إنّي أرى[٧٣] أنّ تداخُلاتِ «الأبْعَادِ المَكَانِيّة» وغِيَابَ «البُعْدِ الزَّمَنِيّ» أوجد المُتناقِضات والمُفارَقـات التي قادتْ «التَّكْوين الثَّقافـيّ العربيّ» إلى أَزْمَةٍ فِكْريّـةٍ واحْتقاناتٍ شديدةٍ، تَنْعَكِسُ في الأدبيّات السّائِدة، والسِّجَـالات التي تُكَرِّرُ ذاتها عبْر الأزْمِنَة، وهي تَتَجَلَّى في مُصْطلحاتٍ، مِثْل: «الغَزْو الثقافيّ»، و«إشْكَاليّةُ التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، و«أَزْمَةُ العَقْلِ العربيّ»، و«العَوْلَمَـةُ والخُصُوصِيّـة»؛ وكُلُّ ذلـك يَجْعَلُ التّحـدّي الأبْرز هو تَأْسيس «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يُحَدِّدُ مَوْقِعَ «المُجْتمعات العربيّة» على «خريطة الكَوْن» عبْر تفاعُلاتِ «الزَّمان» و«المكان» ليَكْتَمِـلَ «الوَصْـفُ الفيزيائيُّ الحقيقيُّ» لوَاقِـعِ الأُمّة، كما هو الحال فـي وَصْفِ آينشتاين الدّقيق لفيزياء الكَوْنِ وسُنَنِه.

ويبْـدو لي من تَحْليلِ مُعْظَمِ الطُّرُوحات الفِكْريّة علـى السّاحة العربيّة، ورُدودِ الفِعْل علـى مُخْتلف المُسْتويات، أنّ بعْضنا يُريدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «الزَّمان» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ،

وبعْضنا الآخَر يُريدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «المكان» وخَارِجَهُ في الوَقْت ذاته؛ وكِلْتا الحالَتَيْن في «عِلْم الفيزياء» من القضايا المُسْتحيلة، ولكن الغريب أنّ «العَقْلَ العربيَّ» أَتْقَنَ هذه اللُّعْبَةَ الخَطِرَةَ – على مدى قُرُونٍ – ممّا أَدَّى إلى الفَشَلِ الثّقافيّ والإخْفَاقِ المَعْرفيّ اللذين تَتَعَثَّرُ فيهما الأُمّـة، كما تَمَخَّضَتْ عن ذلك نتائِجُ وخيمةٌ على الأصْعِـدَة السّياسيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والعَسْكريّة وغيرها. وهكذا نجدُ أنّ تَغْييب «الزَّمن» في «العَقْلِ العربيِّ» نَاجِمٌ عـن عدم اسْتِيعابه لعمليَّتَيْ «تَرَاكُـمُ الفِكْر» و«نُضْجُ التَّجْرِبة»، وهمـا بطبيعتهما من نِتَاجِ «البُعْـدِ الزَّمَنِـيّ» في حياة الإنْسـان؛ فتَمْضِي «الحياة العربّية» – على مـدى قُرُونٍ – تُكَرِّرُ أخْطاءهـا، وتُكَرِّسُ نَرْجسيّتها، غير آبِهَةٍ بمـا يَتَمَخَّضُ عن ذلك مـن نتائِج وبيلةٍ، وغير عَابِئَةٍ بطبيعة «السُّنَـنِ الكَوْنيّة»، وغير مُدْرِكَةٍ لعمليّة «تَحَكُّم المُقَدِّمَات في النَّتَائِج»؛ فهي تتوقَّـعُ أنْ تَخْتَلِفَ «النَّتَائِجُ» وإنْ تَكَرَّرَتْ «المُقَدِّمَـاتُ» ذاتها، وهي تَحْسَبُ أنّ «سُنَنَ الكَوْنِ» ستُحابيهـا لسببٍ لـم يُدْرِكْهُ أحدٌ من البشر، ولكن يُعَزِّزُهَا دائماً ذلـك الشُّعُورُ النَّرْجَسِيُّ اللّاواعي الكَامِنُ في أعْمَاقِ «الوِجْدَانِ العربيّ».

٥-٢-٤) غُرْبَة «العَقْل العربيّ» في العَصْر الحديث:

إنّ المُحَـدِّدَاتِ لكينونـة «العَقْلِ العربيّ» تَجْعَلُ العرب غُرَبَاءَ عـن العَصْر، طالما أنّ ثقافتهم تجوبُ عَوالِمَ «أَلْف ليلةٍ وليلة»، وتَأْنَسُ إلى حكايات «أبو زيد الهلالي»؛ فإذا أَذْهَلَهَا فِعْـلُ «الزَّمان» فـي أقْوامٍ انْخَرَطُوا فـي ديناميكيّتـه، وبَهَرَتْهَا مُعْطياتُ التِّقْنيـة وتَجَلِّيَاتُ «الفِكْرِ العِلْميّ»، فإنّها سُرْعَانَ ما تُهَرْوِلُ، لتَنْدَسَّ بين جلابيبِ الشِّعْر، وتتوارى خلْف ظِلالِ الماضي، وتلـومُ العَالَمَ بأسْرِهِ على إخْفاقاتِها وفَشَلِهَـا، مُحَقِّقَةً بذلك مَقُولة علي الورديّ بـأنّ: (العَقْل البشريّ هو في الوَاقِع كالنَّبْتَة التي تَأْخُـذُ من موادّ التُّرْبَةِ ما يُلائِمُ مِزَاجَهَا وتَرْفُضُ الباقي)[٧٤]. سيظلُّ العـربُ غُرَبَاءَ عن العَصْرِ، طالما أنّهـم حَسِبُوا أنّ التّعامل معـه يَنْحَصِرُ فـي تَبَنِّي مُصْطلحاتٍ لا يُدْرِكُـون شُرُوطَهَا، ولا يَسْتَوْعِبُـون خلفيّاتِهَا، وهم لـم يُعاشِـرُوا تَرَاكُمَاتِهَا، ولم يُعايشُوا مَخَاضَاتِهَا، ولكنّهـم يتوقَّعُون أنْ يكون حالها كحال

التّقْنيـات التـي اسْتوردوها، والأجْهزة التي ابْتاعوها، فتقع فـي حِجْرِهِمْ جَاهِزةً للتّطْبيق والاسْتِخْدام والإبْداع.

إذا كان آينشتاين – في حالة تفتُّقٍ عَبْقريٍّ – قد اسْتطاع أنْ يُفَكِّكَ التّفاعُلات الكَوْنيّة عبْـر التّداخُلات «الزَّمانيّة – المكانيّة» في «النّظريـة النِّسْبيّة»، فإنّ المُهِمّةَ أكْثر شراسةً وأصْعب تَنْظيراً في حالة مُحاولـةِ تَفْكيكِ الاضْطِرَابِ بين «الزَّمان» و«المكان» في «العَقْلِ العربيّ». وأمّا السُّؤالُ الذي يَنْتَصِبُ بكُلِّ عُنْفوانٍ فهو: (هل ما زِلْنا – بعْد كُلّ هذا الإخْفَاقِ والفَشَـلِ على طريق «النَّهْضَـة الشّامِلَة» – نقولُ إنّ ثقافتنا، التي تُشَـكِّلُ عُقُولَنَا، هي على خيـر حالٍ، وكُلُّ ما تَحْتَاجُهُ هو فقط مَسْحَةٌ هنا ولَمْسَـةٌ هناك؟؛ ألا يَفْرِضُ علينا «المَنْهَجُ العِلْمـيُّ» مُراجَعَةً جِذْريّةً تُحاولُ الانْفـكَاكَ من أَسْرِ «ثقافةٍ لَفْظيّـةٍ» مَشْحُونةٍ بالانْفِعالات إلـى رِحـابِ «بيئةٍ عِلْميّةٍ» تَصْنَـعُ «العَقْلَ العِلْمـيّ» القَادِرَ على اسْتِيعـاب مُعْطيات العَصْرِ وشُرُوطِـهِ فتَحْكُمُهُ معاييرُ الإنْجَـاز، وحقائِقُ الإنْتَاج، وأخْلاقيّـاتُ العمل، وعِبَرُ الماضي، واسْتِشْرَافُ المُسْتَقْبَل؟).

فـي ضوء الحقائِق المُحْزِنَة لوَاقِعِ «المُجْتمعـات العربيّة» نجدُ أنّنا في أمسِّ الحاجة إلـى المُقَوِّمَـاتِ القَادِرَةِ علـى انْتِشَالِ «العَقْـلِ العربيّ» من غُرْبَتِهِ عـن عَصْرِه، ومن ذلك المُنْطلـق نرى – بجلاءٍ – أنّ عمليّة «تَرْميم العَقْلِ العربيّ»، التي يَقْتَرِحُهَا أحمد زويل[٧٠]، لـن تكـون كافيةً؛ ومن الواضِـحِ أنّ الحاجة مَاسَّـةٌ إلى عمليّـة «إعادة بِنَـاءٍ» تَسْمَحُ بضَخِّ أمْـواجٍ ديناميكيّةٍ قَادِرَةٍ على تَحْريـكِ الحالة الرَّاكِدَة، والانْطـلاقِ بفاعِليّةٍ على الصّعيد الاجْتماعيّ والتّنْمَويّ والثّقافيّ وغير ذلك من مَنَاحٍ حياتيّةٍ مُتشابِكَة.

٥-٢-٥) البَحْث عن «تَوازُنٍ جديد»:

إنّ المُتَأَمِّـلَ لأوضـاعِ «المُجْتمعـات العربيّـة» يـرى أنّ الوَضْـعَ لم يَتَغَيَّـرْ مع تنامي «الهَجْمَـةِ العَوْلَميّة»، بَلْ لعلّه ازْداد تفاقُماً، وذلك منْذ أنْ كتب مالك بن نبيّ يَصِفُ الحال فـي خمسينات القـرْن الماضي بقوله: (ولو أنّنـا حَلَّلْنَا حياة مُجْتمعنا لوجدنـا فيه ألْواناً

جديـدةً تَدُلُّ في جُمْلَتِهـا على نزعاتٍ مُتباينـةٍ، واسْتِعْداداتٍ فَرْديّةٍ مُتباينـةٍ، في مُجْتمعٍ فَقَدَ تَوازُنَهُ القديم، ويَبْحَثُ الآن عن تَوازُنٍ جديد)[٢]. وهكذا يُصْبِحُ البَحْثُ عن «التَّوازُن الجديـد» قضيّـةً مصيريّة، وهو تَـوازُنٌ لن تَتَحَقَّـقَ شُرُوطُهُ إلاّ عبْر إعـادة تَشْكيل «العَقْلِ العربـيّ» في إطارٍ يَسْمَـحُ له بالتَّخَلُّصِ من حُكْـمِ «العَقْلِ العربيّ» علـى الأشْياء التي يرى يوسـف أبا الخيل[١٧] أنّـه: (حُكْمٌ ذاتيٌّ بَحْتٌ، بمعْنَى أنّ ذلك «العَقْلَ» يُضْفِي حُكْمَ الثّقافة والمُجْتمع اللذين يَحْتضنانه على الأشْياء من حوله، ليُمَيَّزَ الإنْسانُ العربيُّ «العَاقِلُ» طريق الخير من طريق الشّر. لكن ليس من مُهِمّاته، أَعْنِي العَقْل «المُكَوَّن» بالمُحَدِّدَاتِ الثّقافيّة العربيّة، فَحْصُ ذوات أو جَوَاهِر تلك الأشْياء التي يُضْفِي عليها أحْكَامَهُ القِيميّة)؛ وأمّا في حالـة المُقارَنَةِ بين «العَقْلِ العربـيّ» و«العَقْلِ الغَرْبيّ» فإنّ يوسف أبا الخيل يرى أنّ «العَقْلَ العربـيّ»: (يَجْعَلُ الهدف من النَّظَرِ في مُكَوِّنَاتِ الطّبيعـة مَحْصُوراً في اسْتِحْضَارِ العِظَة والعِبْـرَة، لا اسْتِكْشَـافِ آليّةِ عملها مـن خلال قوانينها وأسْبابها التـي تَتَّصِفُ بالضّرورة والشُّمُـول، وهـي النَّظْرَةُ التي يتَّصِفُ بها «العَقْلُ الغَرْبيُّ» في تعامُله مع الأشْياء من حوله، طبيعيّةً كانتْ أو اجْتماعيّة).

ولكـن «العَقْلَ العربيَّ» ليس جِينَاتٍ مُخْتلفةً عن جِينَـاتِ عُقُولِ بقيّة البشر، وإنّما هو نِتَـاجُ «ثقافةٍ» يَسْبَـحُ في أمْواجها، ويَقْـرَأُ بلُغَتِهَا، ويَحْلُمُ بأحاسيسِهـا، ويُفَكِّرُ بمُعْطياتِها، ويَحْتَكِـمُ إلى قِيَمِهَا، وهذا يَجْعَلُنَا نَطْرَحُ السُّؤال: (هل يُمْكِنُ إعادة تَشْكيلِ «العَقْلِ العربيّ» وتَرْميـمِ خلاياه، دون إعادة صِياغَةٍ كَامِلَـةٍ لـ«الثَّقافة العربيّة»؟). من ذلك المُنْطلق نجد أنّـه من الضّروري – على طريق تَحْقيق ذلـك «التَّوازُن الجديد» – التّأْسيس لـ«بِنْيَةٍ فِكْريّةٍ جديـدةٍ» ومُنْطلقـاتٍ ثقافيّةٍ فَاعِلَةٍ، وهـذا يَعْنِي ضَرُورَةَ تجاوز مُحَـدِّدَاتِ «العَقْلِ العربيّ» التّقليديّـة، وفَرْضَ مُحَدِّدَاتٍ جديدةٍ تَأْخُذُ في حِسَابِهَـا الأهْداف المُتَوَخَّاة، والمُوَاصَفَات المطْلوبـة، والتَّحَدِّيـات المُنْتَصِبَة. إنّ غِيَابَ التّأسيس لهـذه «البِنْيَة الفِكْريّة الجديدة» – فـي تفاعُلات «الثَّقافة العربيّـة» – هو المَسْؤول الأوّل عن إخْفَـاقِ كُلِّ محاولات «النّهْضَة» ومَشْرُوعات «التّنْمية» في العَالَمِ العربيّ؛ لأنّها – بكُلِّ بساطة – وفْق رأي عبد الإله بلقزيز:

(اكْتَفَتْ بالتَّبشير بمبادئ «النَّهْضَة» دون أنْ تُقَدِّمَ مَنْظُومَةً فِكْريّةً حقيقيّةً حولها وحول سُبُلِ تَحْقيقِها)[١٩].

وأمّا عنْدما نَطْرَحُ ذلك السُّؤالَ الحَاسِمَ عن «خصائِص الثَّقافة التي نُريد»، فإنّنا - عادةً - ما نجدُ أنفسنا بين «مِطْرَقَةِ» تلك الثَّقافة الغَارِقَةِ في الماضويّة والمُنْغَمِسَةِ في أوهامِها وتخيُّلاتِها ونَرْجسيَّتِها، وبين «سِنْدَانِ» تلك الثَّقافة الأُخْرى المُغَايِرَةِ والمُرْتَمِيَةِ في أحْضَانِ حَدَاثةٍ غريبة المَنْشأ والهُويّة لا تَعْتَرِفُ بقِيَم «المُجْتمعات العربيّة»، ولا تَأْبَهُ بثَوابتِها، ولا تَسْتَوْعِبُ تفاعُلاتِها. نَسْتطيعُ - بطبيعة الحال - أنْ نجد أعْذاراً عديدةً لهذا الحال المُتَرَدِّي، ولكن البَحْثَ عن الأعْذار ليس من أهْداف هذا الكِتاب، فهَمُّنا الرّئيس هنا هو تَأْصيلُ رُؤيةٍ حيويّةٍ فَاعِلَةٍ لـ«الثَّقافة» تُصْبِحُ بمثابة اتِّجَاهِ «البَوْصَلَةِ» الذي يَضْبِطُ «الحَرَاكَ الثَّقافيّ» نحو «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة» في «المُجْتمعات العربيّة». ومن هنا تَنْبَثِقُ أهميّة مُصْطلح «الثَّقافة التّنْمَويّة»، المُسْتَنِد إلى عمليّة «التَّحَدِّي والاسْتِجَابَة»، وذلك بصفتها رُؤيةً لازمةً لتَحْريكِ المُجْتمعات، واسْتِنْفَارِ جُهُودها، وتَعْظيم مَواردِها؛ لتَحْقيق ذلك «التَّوازُن الجديد»، ولتتفاعل مع النَّسَقِ الحياتيّ في جُهْدٍ دَؤوبٍ وفِعْلٍ تراكُميٍّ يَنْحتان في قِوَامِ الوطن؛ لتَحْفيزِ القُدرات، وتَصْحيحِ المُمارَسات، وتَطْوير الأداء، وتَعْميقِ الانْتماء. ولذا فإنّ «إشْكَاليّةَ التّنْمية»، التي لم نَحْسِمْ بعْد مُقْتَضياتِها وأولويّاتِها، في أشدِّ الحاجة إلى مَنْظُورٍ ثقافيٍّ ورُؤىً فِكْريّةٍ ذات إسْتراتيجيّةٍ طويلة الأمد، تَهْتَمّ بتَأْمين التّفاعُل الصّحيح مع مُتَطَلَّبَاتِ «التّنْمية»، وتَحْرِصُ على تَهْيئة التُّرْبَةِ الخِصْبَةِ لاسْتقبال مُعْطياتِها والمُحَافَظَةِ عليها وتَطْويرها.

أقول: هنا تَبْرُزُ الحاجة إلى بَلْوَرَةِ خصائِص «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَهْتَمُّ بتوفير «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة»، وتَحْرِصُ على اسْتيعاب الحقيقة الجوهريّة القائلة بأنّ «مَنْظُومَةَ العلوم والتّقْنية» ليستْ مُجَرَّد آلاتٍ وتَجْهيزاتٍ ووسائِل ماديّةٍ، ولكنّها - في المقام الأوّل - كما يقول فلاح سعيد جبر: (ظاهِرَةٌ اجْتماعيّةٌ وجماعيّة تُوَلِّدُهَا ظُرُوف مُجْتمعٍ مُعَيَّنٍ تَتَوَفَّرُ لديه كافّة سُبُل العطاء العِلْميّ والتّكْنولوجيّ، وتتعاملُ معه سَلْباً وإيجاباً العديد من العَوامِل والمُعْطيات)[٧٥]. وأمّا علي أومليل[٣٧] فيرى أنّ من «مُسَلَّمَاتِ الفِكْرِ الإصْلاحيّ» هو أنّ

(«العِلْـمَ» هو الذي أَطْلَقَ النَّهْضَة الأوروبيّـة)، وبالتّالي: (فإنّ «النّهْضَة العربيّة» لن يُمْكِن أنْ تكـون إلاّ كذلك، أَيْ باقْتِبَاسِ العلوم التي أَمْكَنَـتْ أوروبا من نَهْضَتِهَا، وبالذّات العلوم بمَعْنَاهـا الدّقيق، تلك التي يَتَحَكَّمُ بها الإنْسان في الطّبيعـة، ويُسَخِّرُهَا لإنْتاج الخيرات، ويُنَظِّـمُ بها مُجْتمعه). وهكـذا نجد أنّ الإجْمَاعَ بين النُّخَبِ الثّقافيّـة مُنْعَقِدٌ على ضرورة «الإصْـلاح الثّقافيّ» فـي «المُجْتمعات العربيّة»؛ فعلى سبيل المِثـال يَعْزُو لؤي صافي بُطْءَ النُّموّ في البلدان الإسْلاميّـة، جُزْئيّاً على الأقلّ، إلى (فشل القيادات الفِكْريّة والسّياسيّة في إدْرَاكِ الطّبيعة الجَدَليّة بين «الإصْلاح الثّقافيّ» و«التّنْمية البُنْيويّة الاجْتماعيّة»)[١٦]، ولكـن في خِضَمّ كُلِّ تلك التّنْظيرات، ومُحاولات سَبْـرِ طبيعة المَأْزِق، وضَرورة «الإصْلاح الثّقافـيّ»، تَبْقَـى مَعَالِمُ ذلك «الإصْلاح» وأولويّاته هَائِمَةً غَائِمَـةً في ظِلِّ «صِنَاعَةِ الكلام» التي تُتْقِنُهَا «الثّقافة العربيّة» أيَّمَا إتْقَان!.

٥-٣) «ثقافة المُسْتقبَل» و«مُسْتقبَل الثقافة»:

إنّ عمليّة «إعادة تَشْكيل العَقْلِ العربيّ» تَدْفَعُ - بالضّرورة - إلى مُرَاجَعَةٍ دقيقةٍ لوَاقِعِ «الثّقافة العربيّة» وخصائِصها ومُحَدِّدَاتِهَا، ممّا يُحَتِّمُ «عمليّة التّغْيير» التي لن تكون عمليّةً اخْتياريّـةً؛ فهَجْمَةُ «العَوْلَمَةِ» وآثارُها، وخصائِصُ «الحركـة العِلْميّة - التّقنيّة» وهَيْمَنَتُهَا، ومُتطلّبـاتُ «الحركة التّنْمَويّة» ومُقْتَضياتُها؛ كُلُّ ذلك يَسْتَلْـزِمُ إعادة النَّظَرِ في «التّرْكيبة الثّقافيّـة» وخِطَابِهَا السّائِـد، ومُرَاجَعَةِ عناصرِها المُهَيْمِنَـةِ بسَلْبيّاتِها وإيجابيّاتِها، وهنا نَتَوَقَّفُ أمام السُّؤال الذي يَطْرَحُهُ علي أومليل وهو يقول: («مُجْتمع المَعْرِفَة» - مُسْتَقْبَلُنَا - مَرْهُونٌ، ضمْـن شُرُوطٍ أُخْرى، بما ستكون عليه ثقافتنا، خاصّةً قِيَمها الحَافِزَة، ابْتداءً من القِيمة التي تُعْطَى للمَعْرفة، لكن أيّة مَعْرفة؟)[٢٧].

ويَبْرُزُ هنا مُصْطلـحُ «المُسْتَقْبَل»، وانْطلاقاً من وَلَعِ «الثقافة العربيّة» بـ«الثُّنَائِيَّات»، فإنّ الوَاقِعَ الجديدَ يَفْرِضُ علينا «ثُنَائِيَّةً» جديدةً، وأَزْعُمُ أنّها الأهمّ، وهي: ثُنَائِيَّةُ («ثقافةُ المُسْتَقْبَل» و«مُسْتَقْبَلُ الثّقافة»)؛ فـ«ثقافةُ المُسْتَقْبَلِ» تُحَدِّدُهَا شُرُوطُ «الزّمان» و«المكان»، وآثـارُ «العَوْلَمَةِ» الكَاسِحَة، و«الطّبيعةُ الاقْتحاميّةُ للعلوم والتّقْنية» التي تَفْرِضُ نفْسها على

المُجْتمعـات، سَـواءً كانت رَاغِبَةً فيهـا أو مُتَحَفِّظَةً عليها، وأمّا «مُسْتَقْبَـلُ الثَّقافة» فهو ما يَنْتُجُ عـن جُهُودِنَـا ومُمَارَسَاتَنَا واهْتماماتِنـا وقِيَمِنَا وتفاعُلاتِنَا مـع «الزَّمان» و«المكان» - سَلْبـاً وإيجابـاً -. أمّـا أبْرز مظاهِـر «الأَزْمَةِ الثَّقافيّـة» فهو اكْتِظَاظُ السّاحـة الثّقافيّة العربيّـة بالنّقْدِ والمُرَاجَعَةِ والتّنْظيرِ والدَّعْوَةِ إلـى «الإصْلاح الثَّقافيّ» الذي يَتَّفِقُ الجميع علـى أهميّتـه وريادته في عمليّة النُّهوض بالأُمّة ودَفْعها علـى مُرْتقيات الازْدهار والمَنَعَة؛ فـ«الثقافـة» كما يقول علي علي حبيش: (ليستْ تَعْبيـراً عن الوَاقِعِ فحسب بَلْ أيضاً وسيلةً فَعّالـةً لتَغْييـره، فـ«الثَّقافة» ليستْ مُجَرَّد مَجْمُوعَةٍ من المعـارِف والقِيَم وإنّما هي تَرْجَمَةٌ لهـذه القِيَم والمعـارِف إلى سُلُوكٍ مُعَيَّن)[٣٩]، ولكن كُلُّ ذلـك «الضَّجيج التّنْظيريّ» يَبْقَى - فـي المُجْتمعات العربيّة - فَارِغاً على «الصَّعيد الإجْرائيّ»، وخَاوِياً على مُسْتوى الآليّات والفَعّاليّات العمليّة.

عندمـا نَتَحَدَّثُ عـن «المُسْتَقْبَلِ»، فإنّ الحديـث يَنْبَغِي أنْ يَسْتَنِدَ إلـى أُسُسٍ مُعَيَّنَةٍ، ومُقَوِّمـاتٍ مُحَـدَّدَةٍ، ومُقَدِّمَـاتٍ وَاضِحَـةٍ لهـذا «المُسْتَقْبَل» الـذي نُشِيرُ إليـه ونَهْفُو إلى تَحْقيقِـه، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ محمد عابد الجابريّ بقولـه: («المُسْتَقْبَلُ» الذي نَقْصِدُهُ ونَرومُ اسْتكشافـه ليس «المُسْتَقْبَل» بإطْلاقٍ، بَلْ «المُسْتَقْبَل» المَشْرُوط بالمُعْطيات الرّاهِنة)[١]، وهـذا - في رأْيـي - يَجْعَلُ السُّؤالَين الأكْثـر إشْكَاليّةً في الوَاقِعِ العربـيّ، هما: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحَـدَّثَ عـن «مُسْتَقْبَـلِ الثَّقافة» بمَعْـزِلٍ عن عَصْرِهَـا وطبيعةِ القُـوى المُهَيْمِنَةِ عليه والمُحَرِّكَـةِ لمساراته؟، وألا يُجْبِرُنَا ذلك على التَّعامُلِ بجِدِّيّـةٍ مع «ثقافة العلوم والتَّقْنية» وهي الحَاضِرَةُ الغَائِبَةُ - كالعادة - في كُلِّ طُرُوحاتِنَا وإنْ كنّا لا نَنْسَى أبداً أنْ نُشِيرَ إليها على اسْتِحْيَاءٍ ودون تَمَعُّن؟).

٥-٣-١) «اسْتراتيجيّة الثّقافة» و«الفَجْوَة المَعْرفيّة»:

عندما نتعاملُ مع قضيّةٍ كُبْرى كقضيّة «النَّهْضَة» فإنّنا لا نَسْتَغْرِبُ من كَثْرَةِ الأسْئلة، ولا نَنْزَعِجُ من تَعَدُّدِهَا، ولكنّنا سنَفْرَحُ عنْدما نَعْلَمُ أنّها - في نهاية المطاف - تَطْرَحُ قضيّةً وَاحِـدَةً يُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابـريّ بقوله: (أسْئلةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ولكنّها تَطْرَحُ قضيّةً وَاحِدَةً،

قضيّـة «إعـادة بِنَاء الذّات العربيّـة» بالشَّكْلِ الـذي يَجْعَلُهَا قَادِرَةً علـى مُجابَهَةِ تحدّيات العَصْـر والاسْتِجَابَةِ لمُتطلَّباته)[1]. ولكن لن تدومَ فَرْحتُنا تلك باخْتِزَالِ «أسْئلة النَّهْضَة» - كما يرى الجابريّ - إلى قضيّةٍ وَاحِدَةٍ؛ لأنّ الطّريق إلى «إعادة بِنَاءِ الذّات» هو الإشْكَالُ الأساسـ؛ فهـو الطّريقُ الذي تَعَـدَّدَتْ حوله الاجْتهـادات والإخْفاقات والمُـداوَلات، وأمّا تفاصيـلُ تلك المُهِمّة فقد بَقِيَـتْ مُبْهَمَةً غَامِضَةً في بَطْنِ الشَّاعِر، أو المُثقَّف، أو المُفكِّر، بينمـا تَحْفَـلُ الدُّنْيا بـ«حركـةٍ عِلْميّةٍ» تُغَيِّرُ مَعَالِـمَ الأرْض إلاّ أنّنا لم نَفْقَـهْ بعْد أبْجديّاتِهَا ومُوَاصَفَاتِهَـا وضريبتِها. إذاً يجـب أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «الثَّقافة العربيّة» تُعانِي من خَلَلٍ مُشِينٍ في مَنْظُومَتِهَا السُّلُوكيّة والقِيميّة، وهي تَتَرَنَّحُ تحت تَأْثير فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ خطيرةٍ، وذلك هو لُبُّ «التَّحَدِّي» الذي يجب أنْ تَتَصَدّى له كُلُّ القُوى المُؤثِّرة في «المُجْتمعات العربيّة»، ومن المُهِـمّ أنْ لا يكـون حال «مُسْتَقْبَلِ الثَّقافة العربيّة» كحال أبـي حيّان التّوحيدي الذي قال: (أمّا حالي فسيئةٌ كيفما قَلَّبْتُهَا؛ لأنّ الدُّنْيا لم تُؤاتني لأكون من الخَائِضين فيها، والآخِرة لم تَغْلُبْ عليَّ لأكون من العَامِلين لها).

إنّ الحِـوارَ الجَـادَّ عن «مُسْتَقْبَـلِ الثَّقافة» لا يكون عن «التّغْيِيـر»، فهو آتٍ لا محالة، ولكن يَنْبَغِي أنْ يَنْصَبَّ على شُرُوطِ «المُسْتَقْبَل»، وكيفيّةِ تَأَقْلُمِ ثقافتنا وتَكَيُّفِهَا واسْتيعابِها لتلـك الشُّرُوطِ لكي يكون «التَّغْييرُ» إيجابيّاً ومُتناغِماً مع طُمُوحات «الإصْلاح» ومَشْرُوعات «التَّنْميـة»، ويجـب أنْ يَحْمِلَ هـذا «التَّغْيير» في طيّاتِـه الإجاباتِ النّاجِعَةَ علـى تساؤلاتٍ يَطْرَحُهَـا جَمْعٌ غفيرٌ من المُثقَّفين العرب، مـن أمْثال علي أومليل عنْدما تساءَل: (ما هي رُؤيتنا لبِنَاء اقْتصادٍ اجْتماعيٍّ ومُنَافِسٍ معاً، وكيف نَبْنِي مَنْظُومَةَ قِيَمٍ تُحَفِّزُ إلى المُبَادَرَةِ والابْتِـكَار، والإقْبَالِ على العمل المُنْتِـجِ وأخْلاقيّاتِه، وضَبْطِ الوَقْتِ كنِظامٍ للحياة والإنْتاج وتَخْطيط المُسْتَقْبَل؟)[37].

إنّ «الخِطَـابَ الثَّقافـيّ» السّائِـدَ فـي العَالَـم العربيّ يعيشـ اضْطراباً مُرَوِّعاً في مَنْهَجيّتـه، وتخبُّطاً شنيعاً في مَرْجِعيّاته، فهو يُريـدُ أنْ يعيش دَاخِلَ «الزَّمن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِـدٍ، وهـو يصـوغُ رُؤاه وفَهْمَهُ لزمنِه في صِياغـاتٍ غَامِضَةٍ أبْرز مـا فيها اسْتِهْلاكُ عطـاء الآخَرين من فِكْرٍ وعلومٍ وتقْنيةٍ، وهذا - دون شَكٍّ - وَصْفَةٌ نَاجِعَةٌ لتَحْقيق الإخْفاق

المَعْرفـيّ والفشـل الحضاريّ. ولا شكّ فـي أنّ الخَلَلَ يتفاقمُ بفِعْـلِ «عَـامِل الزَّمـن» الذي يَرْكُضُ بالقضايا والتّحدّيات و«المُسْتَقْبَل»، بينما تَقْبَـعُ طُرُوحاتُنَا وحُلُولُنَا أسيرةَ أُطُرِهَا الكلاميّة وقَوالِبِهَا التّقْليديّة وشُرُوحَاتِهَا الماضويّة وانْفِعَالاتِهَا الآنيّة، وهي تُحاولُ عبثاً أنْ تـذود عن حِياضٍ تتقلَّصُ مِساحاتُها يوماً بعد يـومٍ بفِعْلِ الدَّفْعِ التِّلْقائيّ لمُحَرِّكاتِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وعَواصِفِ «العَوْلَمَةِ» وانْقِضَاضِ «ثَوْرَةِ الاتِّصالات».

فـي ذلك الخِضَمّ كُلِّـه يَنْبَغِي لـ«الثَّقافـة العربيّـة»، إنْ أرادتْ لها فَاعِليّـةً وحُضُوراً فـي «الأَلْفيّة الثّالثة»، أنْ تَعِـيَ تماماً طبيعة القَرْنِ ومُوَاصَفَاتِـهِ، وإلاّ فإنّها ستَبْقَى مَعْزُولَةً عن عَصْرِهَا لتَجْتَـرَّ «آليّاتِ الماضي» عَاجِزةً عن اسْتِيعَـابِ «تَغَيُّرَاتِ الحَاضِر» و«شُرُوطِ المُسْتقبَـل»، فكما يقولُ محيي الدين صابـر: («التّنْمية» هي قبْل أنْ تكون أدواتٍ ومظاهِر ماديّةً، هي تَفْكيرٌ جديدٌ نحو الحياة، وفي الاتِّجاهات والسُّلُوكيّات)[١٨]. إنّه من المُسْتحيل أنْ نَتَوَقَّـعَ أنْ نُبْحِـرَ بأمانٍ في مُحيطـاتِ «العَوْلَمَـةِ»، وأنْ نَتَحَرَّكَ بفَاعِليّـةٍ عبْر تضاريسِ «التّقْنية»، باسْتخدام أدوات «العَالَم القديم» التي مهما كانت جَدْواها في زمانها فإنّها لن تَسْتطيع أنْ تَرْصُدَ مُعْطيات «الخريطة الحديثة» التي تَحْمِلُ ملامِحَ جديدةً، وآفاقاً رَحْبةً، وتفاصيلَ دقيقة.

وبالرُّجُـوعِ إلى «أدبيَّـات التّنْمية» تَبْرُزُ دَوَاعِي «التَّبَعِيَّـةِ التِّكنولوجيّة» التي تَتَمَحْوَرُ – عادةً – حول مُؤشِّراتٍ ثلاثة[٩]:

١) نِسْبَةُ الإنْفاق من النّاتِج المحلّيّ الإجْماليّ على «البَحْثِ العِلْميّ».

٢) نِسْبَةُ العُلماء والمُهندسين إلى إجْمالي السُّكان.

٣) نِسْبَةُ مُسَاهَمَةِ «البَحْثِ العِلْميّ» في تَكْوين رأْس المال المحلّيّ الثّابِت.

أمّا تلك المُؤشِّراتُ فمن الوَاضِح أنّها –كُلُّها – تَصُبُّ في «الإنْسان» القَادِرِ على صُنْعِ القـرار المُناسِب، وصِياغة الخُطّةِ الكفؤة، وتَنْفيذ الآليّاتِ الفَعّالة، وتَطْوير البِيئةِ القَادِرَةِ على احْتِضَانِ «البَحْثِ العِلْميّ» وزَرْعِ الحماس في فضاءاته وتَطْويعِ مُعْطياته، ودَفْعِ «عَجَلَةِ

التَّعْليـم» في اتِّجاه «العلوم والتّقْنية»، وتَحْفيزِ المُجْتمع على الولوج إلى هذا المِضْمَارِ على مُخْتلف الأصْعِدَة؛ وكُلُّ ذلك لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ دون «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تُشِيعُ «الوَعْي العِلْميّ»، وتَبُثُّ الرُّؤى العَقْلانيّة.

وهكـذا يَتَأَكَّـدُ الشَّرْطُ الضّـروريُّ لـ«عمليّة التّنْمية»، فكما يُوضِّـحُ علي علي حبيش: (إنّ العقبـة الحقيقة التي تَخْنُقُ «التّنْميـة» وتُوقِفُ انْطلاقَهَا ليست أبداً في نُدْرَةِ المَوارِد، ولا نَقْصٍ في التّمْويل. إنّما العقبة الحقيقة تَكْمُنُ في غَيْبَةِ «إنْسان التّنْمية»..فهو العُنْصُرُ الأهـمّ والأخْطر مـن بين عناصِر البِنَـاء والارْتقـاء)[٣٩]، وأمّا عمر الخطيـب فيرى أنّ: («التّنْميـة» بمعْناهـا الوَاسِـع لا تَعْنِي «النُّموّ» فقـط، بَلْ تَعْنِـي أيضاً التّعْديـل التّدريجيّ للسُّلُوك على مُسْتوى الأفْراد والجماعات، بحيث يَسْتطيعُ جميع أفْراد المُجْتمع الاسْتفادة من «عمليّة التّنْمية» والتَّكَيُّفِ معها)[٧٦].

من الوَاضِحِ - إذاً - أنّ أكْبر هُمُومنا اليوم هو تَلَمُّسُ طريقنا - بحِكْمةٍ - نحو «ثقافة المُسْتَقْبَـل» في عَالَـم يموجُ بالتّحدّيـات والمُفَارَقات، وتَخْتَلِطُ فيـه الأوراق من كُلِّ حَدَبٍ وصَـوْبٍ؛ ولـذا فإنّنا نَحْتَـاجُ إلى تَأْسيس «تَكْوينٍ ثقافـيٍّ - تَنْمَويٍّ» يَحْمِـلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَـل» وتُـدْرِكُ تحدّياته؛ فيَحْتَضِـنُ الثّوابتَ والقِيَمَ الرّاسِخَـة، ويُراهِنُ على جَعْلِ «ثقافـة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤثِّراً في التّفاعُـلات الفِكْريّة السّائِدة، فكما يقولُ علي أومليل: (إنّ الثّقافة العربيّة أمام مصيرَيْن: إمّا أنْ تكون قِيَمُهَا مُحَرِّكَةً لمُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُنْتِجَةٍ ومُنَافِسَةٍ في عَالَم اليوم، أو أنْ تَبْقَى على هَامِشِه)[٣٧].

وعَـودٌ إلى ثُنَائِيَّة («ثقافـة المُسْتَقْبَـل» و«مُسْتَقْبَل الثَّقافة»)، فإنّنـا نجدُ أنّ «ثقافة المُسْتَقْبَل» تُحَدِّدُهَا تفاعُلاتِ «الزَّمان» و«المكان»، وليس لنا من تَأْثيرٍ فيها إلاّ إذا بلغنا من النُّفُـوذِ ما يَسْمَحُ لنا بفَرْضِ مُعْطياتنا، وأمّا «مُسْتَقْبَـلُ الثقافة» في «المُجْتمعات العربيّة» فهو الذي نَصْنَعُهُ بأيدينا وعُقُولِنَا وطاقاتِنا، إمّا بشَكْلٍ عَشْوائيٍّ مُرْتَجَلٍ يَتَخَبَّطُ تحت أَسْرِ الكلمـات و«ثقافة اللفْـظ»، وإمّا بشَكْلٍ واعٍ مُـدْرِكٍ لطبيعة التّحدّيات و«شُـرُوطِ العَصْر». إنّـه من البدهيّ أنّه إذا لـم يَتَوَافَقْ «مُسْتَقْبَلُ الثقافة» مع «ثقافـة المُسْتَقْبَل»، ولم تَتَطَابَقْ

مُعْطياتُهمـا، ولـم تَنْسَجِمْ حركتاهُما، فإنّنا سنَبْقَى غير بعيـدٍ عن شاعِرنا الذي وَقَفَ أمام الأطْلال يَبْكِي عليها نَادِباً حَظَّه العَاثِر؛ وأمّا تجاوزُ هذا الحال فهو الأَمْرُ الذي صَنّفَهُ محيي الدين صابر بأنّه: (قَلْب التّحدّي الحقيقيّ الذي يَعْرِضُ على الدُّول النّامية)[١٨].

٥-٣-٢) «ثقافة المُسْتَقبَل» و«مَنْظومة العلوم والتّقنية»:

لـن نَحْتَاجَ إلى كبير جُهْدٍ للخُلوصِ إلى النّتيجة التي حَرَصَنَا علـى تَأْصيلِ دَلالاتِها وآفاقِهـا وشُرُوطِها في هذا الكِتـاب، ويُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ فـي قوله: (إنّ عَالَمَ الغَـدِ مَحْكُـومٌ فِعْـلاً بالعِلْم والتّقانـة، عنْدنا وعنْد غيرنـا، ولكن مع هذا الفَـارِق وهو أنّ هنـاك من يُنْتِجُ العِلْمَ والتّقانة، ويُصَدِّرُهُمَـا ويُسَخِّرُهُمَا للسَّيطرةِ وبَسْطِ النُّفُوذ، وهناك مـن يَسْتَهْلِكُ شيئاً منْهما مُسْتَورِداً إيّاهما ولا يقـومُ بالمُساهَمَةِ في إنْتاجهما فيجد نفْسه بالتّالـي موضوعاً لنُفُوذهِمـا وهَيْمَنَتِهِمَا)[١]. تلك الإشْكَاليّـةُ الكُبْرى - في الوَاقِع العربيّ - فـي كيفيّـةِ تَأَقْلُم «العِلْم والتّقْنية» مع التّفاعُلاتِ المُجْتمعيّـةِ جَعَلَتْ كثيراً من المُثقّفين والمُفكّرين يتنادون إلى ضَرورةِ «غَرْسِ العِلْم والتّقْنية» في «المُجْتمعات العربيّة»، وقادتْ تلـك الضّـرورة بعْضهم إلى الخُلُوصِ إلـى النّتيجة نفْسها التي خَلَصَ إليها الجابريّ في قولـه: (إنّ غرْسَ العِلْم والتّقانة فـي وطننا العربيّ يَتَوَقَّفُ على وجـود تُرْبَةٍ مُلائِمةٍ ومُنَاخٍ منُاسِبٍ، أَيْ على إحْداثِ تَغْييراتٍ في عَالَمِنَا الاقْتصاديّ والاجْتماعيّ والفِكْريّ)[١].

ويهمُّنـا هنا أنْ نَتَوَقَّفَ أمام هذه النَّتيجة التي حَفَلَتْ بتَأْكيدِها المؤتمرات والنّدوات ووسائِل الإعْلام في العَالَم العربيّ، وحَرَصَ على تَرْديدِها وتَسْجيلِها المُثقّفون والمُفكّرون العـرب، ولكنّهـا - فـي نهاية المطـاف - بَقِيَـتْ مُجَـرَّدَ كلمـاتٍ علـى ورقٍ يَسْتَشْهِدُ بها المُسْتَشْهِدون عندما يَحْتاجون إليها لإبْرازِ مَعْرفتهم بعَصْرِهِمْ، واستمرَّتْ مُجَرَّدَ مَقُولاتٍ مُغْتَبَـرَةً عنْـد التّنْظير، ومَفْقُودَةً علـى ساحاتِ التّأْسيس والتّفْعيـل، وغَائِبَةً عن مضامين الإسْتراتيجيّات والآليّات. أمّا تَجْربةُ «النَّهْضَة الأوروبيّة» فيَسْتَخْلِصُ منْها إسماعيل صبري عبـد الله[١١] مُنْطَلَقاً مِحْوريّاً حيث وجـد أنّ: (التّنْمية الشّامِلة عمليّةٌ تَضْرِبُ جُذُورَهَا في كُلِّ جَوانِب الحياة وتُفْضِي إلى مَوْلِدِ حضارةٍ جديدةٍ، أو مرْحلةٍ جديدةٍ من مراحِل التّطوُّر

الحضـاريّ)، وهذا يَعْنِي أنّ: (للتّنْمية أساسٌ مادّيٌّ وآخَر فِكْريّ)، وبهذا تكون («التّنْمية» ثمرة التّفاعُل المُسْتمرّ بينهما بحيث يُغَذّي كُلٌّ منْهما الآخَر ويُقَوّي حركته).

فـي ضوء تلك المُعْطيـات يَتَوَجَّبُ علـى «الثَّقافة العربيّـة» أنْ تُحَـدِّدَ مَوقِفَهَا بشَكْلٍ حَاسِـمٍ من حضارة العَصْـرِ وثقافتِه وتحوُّلاتِه، ممّا يعود بنا - بالضّـرورة - إلى «مَفْهُوم توجيـه الثقافة»[٢٨] في «المُجْتمعات العربيّـة» (انْظر: الفصْل الثّاني)، وبالتّالي يقودُ إلى أهميّـة حَشْدِ الجُهُودِ وبِنَاءِ الإسْتراتيجيّات لتَأْسيسِ «ثقافـةٍ تَنْمَويّة» قَادِرَةٍ على اسْتيعاب التّحـوُّلات العَارِمَةِ والمُتسارِعَةِ عَالَميّاً فـي إطار مُتغيِّراتٍ مَعْرفيّةٍ وحضاريّةٍ وتقنيّة. ولأنّ «الثَّقافـة» هي «حَاضِنَةُ المُسْتَقْبَل»، فإنّ عليها أنْ تتفاعل مع «شُرُوطِ المُسْتَقْبَل»، وتَتَوَاءَمَ مـع مُقْتضيـاتِ «الزَّمان» و«المـكان»، وتَسْتَخْـدِمَ مفاتيحـه - بفَاعِليّةٍ - وهـي تَتَّجِهُ نحو «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهذا بالضّرورة يَسْتَدْعِي «خُطّةَ عملٍ» و«مَنْهَجاً إجْرائيّاً»؛ فلكي يَخْرُجَ «حـالُ الثَّقافة العربيّة» من مَأْزِقِ التّنْظير العَائِم والمُدَاوَلات اللفْظيّة، فإنّنا لا بُدّ أنْ نَتَّفِقَ مـع مالك بـن نبيّ[٢٨] في قوله: (إذا أردنـا أنْ نَفْهَمَ «الثَّقافة» في هـذا العَصْر، وجب أنْ نَفْهَمَهَـا بوَصْفِهَـا «مِنْهَاجاً» قبْل أنْ تكون «نتيجةً»)، وهذا يَقْتَضِـي وفْق قوله: (أنْ نُعَرِّفَهَا طِبْقـاً لمِقْياسٍ عمليٍّ، وذلك بأنْ تكون صَالِحةً لشيءٍ ما، وأنْ تكون على عِلْمٍ بهذا الشّيء؛ أَيْ أنْ تَتَحَدَّدَ طِبْقاً لما يجب أنْ تقوم به من عمل).

إنّ نُقْطـة الانْطلاق نحـو أيِّ «إسْتراتيجيّةٍ ثقافيّةٍ» حيويّةٍ يَنْبَغِـي أنْ تَبْدَأَ بالاعْتراف بـ«وَاقِـعِ الثَّقافة العربيّة» الذي يَتَعَثَّـرُ تحْت تَأْثير «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» مُتفاقِمَةٍ، وتَكْمُنُ جسامة التّحـدّي فـي ضعْـف قُدْرتِهَا علـى اسْتيعـابِ فِكْـرِ «مَنْظُومَةِ العلـوم الحديثـة والتّقْنية» ومُمَارَسَاتِهَـا ومُقْتضياتِهـا. لذا لا يَنْبَغِـي أنْ تكون قضيّةُ «الثَّقافة» قضيّـةً «نُخْبويّةً» تَمُسُّ فِئاتٍ أو شرائِح مُعَيَّنَةً فقط في المُجْتمع، ولكنّها قضيّةُ كُلِّ مُواطِنٍ يعيش عَصْرَه، ويتفاعلُ مع زمنـه، ويُدْرِكُ أنّ «الثَّقافة» هي «بَوْتَقَـةٌ تفاعُليّةٌ» واسِعَةُ النِّطَـاقِ والأطْيافِ والأشْكَالِ تُؤثِّرُ في مجْموعِها - سَلْباً وإيجاباً - على الجميع.

من الوَاضِح أنّ أدبيّاتنا الثقافيّة تَزْخَرُ بتَجَلِّيَاتِ الإحْبَاطِ والعَجْزِ والشَّكوى والتّذَمُّرِ من وَاقِعٍ تَسْتَفْحِلُ فيه المُشْكلاتُ الحياتيّة والاقْتصاديّة والاجْتماعيّة، وتَسْتَشْرِي فيه «معاني الاتِّكاليّة» و«قِيَمُ الاسْتِهْلاك» و«نظريَّاتُ المُؤامرة»، ويَبْدُو أنّ هذا ليس جديداً على مُجْمَلِ الحال العربيّ، فقد لمس ذلك زكي نجيب محمود وهو يَسْعَى إلى تَشْخيص هذا الحال بقوله: (والذي أنا زَاعِمُهُ هنا، هو أنّ حياتنا الثَّقافيّة الجديدة قد شَهِدَتْ أدباً أثار فينا أسْئلةً عن حياتنا الوَاقِعَةِ أكْثر جِدّاً ممّا شَهِدَتْ فِكْراً يُحاولُ الإجابة عليها)[٢٠]. لا شَكّ عندي في أنّ زكي نجيب محمود سيَنْزَعِجُ لو عَلِمَ أنّنا دخلنا بعْده أَلْفيّةً جديدةً تضاعفتْ فيها التَّحدّيات لتفوق ما عهده في زمنه في مُنْتَصَفِ القَرْن الماضي، وسيَنْزَعِجُ أكثر لو عَلِمَ أنّ وَصْفَهُ لـ«الوَاقِعِ الثَّقافيّ العربيّ» ما زال على حاله، وأنّ «المَشْهَدَ الثَّقافيّ العربيّ» لم يَتَغَيَّرْ؛ فما زالتْ مُعَلَّقَاتُنَا الشِّعْريّة، وتوصياتُنا الكلاميّة، وتشنُّجاتُنا الانْفعاليّة، ونَرْجسيّتُنا الغريزيّة، ومُيُولُنَا الاسْتِهْلاكيّة، هي كُلُّ ما تُقَدِّمُهُ ثقافتُنا لمُعالَجَةِ وَاقِعٍ مُتَرَدٍّ ومُشْكلاتٍ مُسْتَفْحِلَة.

٥-٣-٣) «إسْتراتيجيّة الثّقافة» و«قضيّة المُسْتَقبَل»:

في ضوء تَفَاقُم التّحدّيات المُعاصِرَةِ واسْتِفْحَالِ «الأَزْمَةِ الثَّقافيّة»، فإنّ التّعامُلَ مع ظَواهِرِهَا ومَظَاهِرِهَا وأسْبَابِهَا يُصْبِحُ «قضيّة المُسْتَقْبَل» التي يَنْبَغِي أنْ تَتَحَوَّلَ إلى هَاجِسٍ مُقِيم يُحَرِّكُ العزائم، ويُهَيْمِنُ على كُلِّ القضايا والطُّرُوحات، وهي «القضيّةُ الغَائِبَةُ» عن اهْتمامات «الثَّقافة العربيّة» بالرّغْم من كُلِّ تلك الطُّرُوحات والقصائِد والمؤتمرات التي تَتَغَنَّى بها وتَحْلُمُ بارْتياد آفاقِها إلاّ أنّها - في نهاية المطاف - تَبْقَى مُجَرَّدَ حِبْرٍ على وَرَق.

إنّ «قضيّة المُسْتَقْبَل» تَحْتَاجُ إلى أنْ تَنْتَقِلَ إلى كُلِّ دارٍ وساحةِ عملٍ ومَصْنعٍ وجامعةٍ، وكما يقولُ مسعود ضاهر فإنّ: (سيرورة النَّهْضَة تَحْتَاجُ إلى تَرَاكُم كَمِّيٍّ من الإنْجازات الإيجابيّة المُتَحَقِّقَةِ على أرْضِ الوَاقِع)[٨]، وهذا ما يُؤكِّدُهُ مهاتير محمد - صَانِعُ «المُعْجِزَةِ الماليزيّة» - عندما سأله أحمد زويل عن سِرِّ تلك «المُعْجِزَةِ» فأجاب قائلاً: (أنْ تَجْعَلَ الشَّعْبَ كُلَّه يُفَكِّرُ في المُسْتَقْبَل)[٧٠]، ولا شَكّ أنّ هذه الرُّؤية تَلْتَقِي مع مَقُولة فيكتور هوجو

(Victor Hugo): (إنّ الحكومة الجيّدة تَتَأَسَّسُ على مَعْرِفَةِ القَدْرِ المُناسِبِ من مُكَوِّنات «المُسْتَقْبَل» اللّازم إدْخاله في «الحَاضِر»)[٤٤].

تَأْسيساً على ما سَبَقَ يَبْدُو من اللّازم أنْ نَطْرَحَ من جديدٍ - وبإلْحاحٍ - أسْئلةً وَصَفْنَاهَا بأنّها الأكْثر إشْكَاليّةً في الوَاقِع العربيّ، ويَنْبَغِي أنْ نَسْعَى إلى الإجابة عنها بموضوعيّةٍ وتجرُّدٍ: (هل يُمْكِنُ الحديثُ عن «مُسْتَقْبَل الثَّقافة العربيّة» بمَعْزِلٍ عن عَصْرِهَا وطبيعته العِلْميّة - التّقنيّة؟ هل يُمْكِنُ تَصَوُّرُ ثقافةٍ فَاعِلَةٍ في مُجْتمعها دون تَحَوُّلِهَا إلى ثقافةٍ مُنْتِجَةٍ وخَلاّقةٍ ومُتَفَاعِلَةٍ مع «شُرُوطِ العَصْرِ» ومُوَاصَفَاته؟ أليس من العجب العُجاب أنْ يُراد لآليّاتِ «العلوم والتّقنية» والتّطوُّرات المُعاصِرَة أنْ تَعْمَلَ في فَرَاغ؟).

ومَرَّةً أُخْرَى، نجدُ أنّنا - على طريق الإجابة عن هذه الأسْئلة - نَصْطَدِمُ بـ«مَفْهُوم توجيه الثَّقافة»[٢٨] (انْظر: الفصْل الثّاني) الذي يَفْرِضُ صِياغَةَ مفاهيمٍ تَنْمَويّةٍ وأُطُرٍ عَصْريّةٍ لها لتَسْتطيع أنْ تَسْتَجِيبَ - بفَاعِليّةٍ - لـ«التَّحَدِّي التّنْمَويّ» القَائِم في «المُجْتمعات العربيّة» لتتمكَّنَ من وَضْعِ الحُلُولِ العمليّة والأُطُرِ الفِكْريّة التي تَنْسَجِمُ مع أهْدافِها، وتتكيَّفُ مع مُقْتضياتِ عَصْرِهَا. أمّا عن تَجْرِبة الدُّول التي نجحتْ في تخطّي كثيرٍ من الحَواجِز والعقبات، والْتَحَمَتْ - بفَاعِليّةٍ - مع عَصْرِهَا وتَغَيُّرَاته، فإنّ مهاتير محمد - صَاحِبَ «التَّجْرِبة الماليزيّة»-، وأحمد زويل - صَاحِبَ «التَّجْرِبة العِلْميّة»-، يَذْهَبَانِ إلى رُؤيةٍ مُشْتَرَكَةٍ تُؤَكِّدُ على أنّ: (الطَّريق هو خَلْقُ ثقافةٍ عِلْميّةٍ تُقَدِّرُ أهَميّة الدِّين والتَّفْكير العِلْميّ معاً)[٧٠]. أمّا عمليّةُ «توجيه الثَّقافة»، فيجب أنْ تَخْضَعَ لعِدَّةِ معاييرٍ، من أهمِّها تَكْريس عمليّات «عَقْلَنَةِ الثَّقافة» وآليّاتها، ليس فقط لأنّ: (الحضارة المُعَاصِرَة تقومُ كُلُّهَا على التّنْظيم العَقْلانيّ لكُلِّ مَرَافِقِ الحياة)[١]، ولكن أيضاً إذا أردنا فِعْلاً تَأْسيس «ثقافةٍ حَيَّةٍ» تَسْتَشْرِفُ «المُسْتَقْبَلَ» وتتفاعلُ مع مُكَوِّنَاته، فإنّنا يَنْبَغِي أنْ نَأْخُذَ في الاعْتبار تلك الحقيقة الثّابتَة التي يُوجِزُهَا محمد عابد الجابريّ بقوله: (إنّ عَصْرَنَا الرّاهِنَ هو، كما يُوصَفُ بحَقٍّ، عَصْرُ العِلْم والتّقانة)[١]، ويُؤَكِّدُهَا بالتّركيز على «التَّخْطيط لثقافة المُسْتَقْبَل» التي تَعْني: (توفير شُرُوطِ المُوَاكَبَةِ والمُشَارَكَة: مُوَاكَبَةُ الفِكْرِ المُعَاصِر والمُشَارَكَةُ في إغْنَائِهِ وتوجيهِه)[٥٩]، ولا يَعْني هذا - بطبيعة الحال - أنْ نَكْتَفِيَ بأنْ تَتَصَدَّرَ هذه المَقُولةُ

مؤتمراتنا وندواتنا وطُرُوحاتنا التّنْمَويّة والفِكْريّة، فالمُهِمّ أنْ تجد تلك «الرُّؤيةُ» طريقها إلى «ثقافة المُسْتَقْبَل» عبْر التَّخْطيط والتّفْعيل والتّوجيه والمُتَابَعَة.

إنّ «ثقافة المُسْتَقْبَل» هي تلك التي تَهْتَمُّ بفَهْم عناصِر «المُسْتَقْبَل» ومُحَدِّدَاته، وتتعاملُ مع شُرُوطِهِ ومُقْتضياتِه، ووفْق تَعْبير زكي نجيب محمود: (إذا أردنا أنْ نُغَيِّرَ وَجْهَ الحياة التي نحياها، فلن يكون ذلك بأنْ نَفْتَحَ كُتُبَ السّالفين لنروي عنهم ما قالوه، ونَنْقُلَ عنهم ما صنعوه، وإنّما السّبيل القويمة - بَلْ السّبيل الوحيدة - هي أنْ نَسْأَلَ عمّا يُرادُ تَحْقيقه في «المُسْتَقْبَل»، فالماضي لا بُدَّ منه، لا لنَجْعَلَ منه نَمُوذَجاً نَحْتذيه، بلْ ليكون مَصْدَراً للإلهام فيما يَنْبَغِي أنْ نَصْنعه. إنّ ولاءنا لآبائنا يجب أنْ يكون في مُحاكاتِهم في وَقْفَتِهِمْ تجاه الحياة، لا في إعادة ما صنعوه حَرْفاً بحَرْف)[٢٠].

إذاً «ثقافة المُسْتَقْبَل» هي تلك «الثّقافة» التي تُدْرِكُ أبْعَادَ الدَّوْرِ الذي يُؤدّيه الإنْسان الذي هو - في نهاية المطاف - مِحْوَرُ «العمليَّة التّنْمويّة» ووسيلتُها وغايتُها، فكما يقولُ علي علي حبيش: (إنّ التَّقَدُّمَ الذي يَحْكُمُهُ الإنْمَاءُ المَعْرفيّ يَحْتَاجُ إلى مُواطِنٍ عَصْريٍّ إيجابيٍّ وفَعّالٍ ومُشَارِكٍ في حياةٍ اقْتصاديّةٍ - إنْتاجيّةٍ - خِدْميّةٍ، بَلْ حياةٍ عامّةٍ ومُجْتمعٍ يَتَّسِمُ كُلّه بهذه الصِّفَات)[٣٩]. ولذا لا بُدّ من وَقْفَةٍ جَادّةٍ تُمَحِّصُ الأهْداف، وتَرْبُطُهَا بالوسائِل، لنتغلَّبَ على حالة «اللّافَاعِليّة» التي أَرْجَعَ مالك بن نبيّ «سببها الأصيل» إلى: (افْتقادنا الضَّابِط الذي يَرْبُطُ بين الأشْياء ووسائلِها، وبين الأشْياء وأهْدافِها، فسياستُنا تَجْهَلُ وَسَائِلَهَا، وثقافتُنا لا تَعْرِفُ مُثُلَهَا العُلْيا، وفِكْرَتُنَا لا تَعْرِفُ التَّحْقيق، وإنّ ذلك ليتكرَّر في كُلِّ عملٍ نَعْمله، وفي كُلِّ خُطْوةٍ نَخْطُوهَا)[٣٨].

٥-٤) خصائِصُ «الثّقافة التّنمَويّة»:

إذا اتَّفقنا مع علي أومليل بأنّ «قِيمة الثَّقافة» هي: (في مدى تَكْوينِها للرّأسمال البشريّ؛ صَانِع التّنْمية)[٣٧]، فإنّنا بنَظْرَةٍ فَاحِصَةٍ لمُعْظَم الجُهُودِ الفِكْريّةِ السّائِدَةِ والمَشْرُوعاتِ الثَّقافيّةِ المَطْرُوحَةِ في العَالَم العربيّ في سِياق ما يُعْرَفُ بـ«اسْتراتيجيّة الثَّقافة»، نجد أنّ هذه الجُهُودَ تَبْدُو وكأنّها تُعِدُّ اسْتراتيجيّةً لدخولِ «القَرْن الخامس

الهِجْـريّ»!. الغريب أنّ ذلك يَحْدُثُ فـي الوَقْت الذي تَبْرُزُ فيه طبقةٌ جديدةٌ من المُثقّفين والمهنيّين، وتَتَّسِعُ شرائِحُ أصْحاب التّخصُّصات العِلْميّة المُتَنَوِّعَة؛ وكُلُّهَا تَحْتَاجُ إلى «بِيئةٍ ثقافيّـةٍ» مُناسِبةٍ، ولها عَلاقَةٌ حميمةٌ بقضايـا «الأَلْفيّة الثّالثة». ولذا فإنّ «الثّقافة» التي لا تَسْتطيـع أنْ تَتَعَـرَّفَ على تلك الحقيقـة الشّاخِصَة للعِيان، وتُصِرّ علـى مُواصَلة جُهُودها الحثيثـة في تَكْريسِ توجُّهاتٍ مَكْـرُورةٍ تَقْليديّةٍ، فإنّها تَحْرِمُ مُجْتمعها مـن تَكْوينِ «البِنْيَةِ الثّقافيّـة» القَادِرَةِ على اسْتيعابِ تغيُّراتِ العَصْـرِ ومُعْطياته، وتَمْنَعُ الشَّبابَ من الانْطلاقِ إلـى آفاقٍ رَحْبَةٍ من التَّفْكير العِلْمـيّ والتَّطْوير الذّاتيّ والتَّأْهيـل التّنْمَويّ. بطبيعة الحال، يُصْبِحُ الأمْرُ أكْثر كارثيّةً، وأشدّ حساسيّةً، عندما نتعاملُ مع مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ تتجاوزُ فيه نِسْبَةُ الشَّبـابِ سِتّين في المائة، وتَبْرُزُ فيه يوميّاً شرائِحُ اجْتماعيّةٌ ومهنيّةٌ وعِلْميّةٌ وتِقنيّةٌ جديـدةٌ لها مُعْطياتُهَا وقِيَمُهَا وفِكْرُهَا، وكُلُّها تَحْتَـاجُ إلى «ثقافةٍ عَصْريّةٍ تَنْمَويّةٍ» تَسْتطيع أنْ تَحْتَضِنَ هُمُومَهَا، وتتلاقح مع تطلُّعاتِها، وتتفاعل مع مُتطلَّباتِها.

وفـي هذا الإطار يَتَّضِحُ لنا جَليّاً أنّ «دَوْرَ المُثقّـف»، بصفته مُبْدِعاً ومُنْتِجاً للمَعْرفة ومُهَذِّبـاً للوَعْي الإنسانيّ، يتصـدَّعُ ويتهالكُ، حيث يعيش «المُثقَّـف العربيّ» في عُزْلَةٍ عن فِكْرِ زمانه، وغُرْبَةٍ عن آليّاتِ عَصْرِه، ليواصل رحْلته الأزليّة إمّا في اجْتِرَارِ الذّات والبُكاء على الأطْلال، وإمّا في الانْغِماسِ في افْتِعَالِ صِرَاعَاتِ «العَوْلَمَة» وجَدَلِ «الحَدَاثَة» ومزاعِمِ «التَّحَرُّر»، وبالتّالي يُصْبِحُ دَوْرُهُ التّنْمَويّ مَعْدُوماً إنْ لم يكنْ سَلْبيّ التّأْثير، وهذا ما يَدْعُونَا إلـى أنْ نَتَّفِقَ مع برهان غليون على (ضرورة إعادة النَّظَـرِ في رُؤية المُثقّف لنفْسه ودَوْرِه الفِكْـريّ)[١٨]. أمّا أبْعَادُ هذا الـدَّوْر، والحَلْقَةُ المَفْقُودَةُ في «النِّضَالِ التّنْمَويّ»، والمعاييرُ التـي يجب أنْ نضعها للتّقويم، فسنَخْتَلِـفُ بشأنها مع كثيرٍ من طُرُوحات المُثقّفين العرب التـي مالـتْ - وما زالـتْ - نحو التّعْميـم والتّنْظيـر المُفْـرِطِ واسْتِخْـدَام المُصْطلحاتِ الفَضْفَاضَـةِ التي يُمْكِنُ لها أنْ تَحْمِلَ قِيَمـاً مُتناقِضَةً ومُمَارَسَاتٍ مُتضارِبَةً، كما يُمْكِنُ لها أنْ تَعْنِـي أيَّ شيءٍ وكُلَّ شيءٍ؛ ولـذا فإنّها مُؤهَّلَةٌ لزَرْعِ بُذُورِ الشِّقَـاقِ والاخْتِلافِ والجِدَالِ أكْثـر من قُدْرَتِهَـا على صِناعة «التَّمَاسُـك» و«التَّرَاكُم» القَادِرَيْنِ علـى التّصدّي للأوجاعِ التّنْمَويّةِ في وَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة».

٥-٤-١) نَحْوَ ضَبْطِ المُصْطلح:

إذا كان المَطْلَبُ هو تَحْقيق ذلك الخِضَمِّ المُتلاقِحِ من المفاهيمِ والقِيَمِ والمدارِكِ والعَلاقَاتِ والتّفاعُلاتِ القَادِرَةِ على دَفْعِ المُجْتمع نحو الأفْضل وتوليد «الاسْتِجَابَةِ» القَادِرَةِ على احْتِواءِ طبيعة «التَّحَدِّي» والتّغلُّبِ عليه، فإنّ من المُهِمّ أنْ نَفْحَصَ مُصْطلحاتِنا بدِقّةٍ؛ لكي نتمكَّنَ من التّعامُلِ مع مُقْتضياتِها بجِدِّيّةٍ، ونُوظِّفَ مُقوِّمَاتِهَا في الاتِّجَاهِ الأكْثر فَاعِليّةً وجَدْوى. ولنَأْخُذْ - على سبيل المِثال - ذلك المُصْطلح الذي غزا الكثير من مؤتمرات العرب ومحافِلِهم، وهو مُصْطلحُ «ثقافة التّنْمية»، لنجد أنّه مُصْطلحٌ يُعْلِنُ دُخُولَ «التّنْمية» على اسْتِحياءٍ إلى «الوَاقِعِ الثّقافيّ»، ويُؤكِّدُ أنّها «جُزْءٌ» من «كُلٍّ»، ويَبْنِي حَاجِزاً أمام «التّنْمية» يضعها في مَسَارٍ وَحْدَه بمَعْزِلٍ عن التّفاعُلات الأَعَمّ والأَشْمَل التي هي من خصائِص «التّنْمية» ومُقْتضياتِها. إنّه لا يجوزُ بحالٍ أنْ تكون لـ«التّنْمية» ثقافةٌ مَعْزُولَةٌ - في سِياقاتِها ومُحَدِّدَاتِهَا - عن ذلك الحَشْدِ الحَاشِدِ من القضايا التي تُؤثِّرُ في نَهْضَةِ المُجْتمع وسيره نحو «المُسْتَقْبَل»؛ فحالُ «التّنْمية» ليس كحال «ثقافة المُرُور»، أو «ثقافة العُنْف»، أو «ثقافة حُقُوق الإنْسان»، أو غير ذلك من «الثّقافات الفَرْعيّة» المُرْتبِطَةِ ببعض أَوْجُهِ التّعامُلِ والتّفْكير، والمُحَدَّدَةِ بحالٍ مُعَيَّنٍ وظَرْفٍ خاصّ.

ولأنّ التَّحدّي الأكْبر أمام العَالَمِ العربيّ هو «تَحَدِّي التّنْمية»، فإنّ من المُهِمّ أنْ تكون له «الأولويّةُ المُطْلَقَةُ» في مُجْمَلِ «الحَرَاكِ المُجْتمعيّ» ممّا يتطلّبُ ثقافةً قَادِرَةً على التّعامُلِ مع «خصائِص التّنْمية» على أصْعِدَتِها الفِكْريّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والبَحْثيّة والاقْتصاديّة وغير ذلك من مناحي الحياة التي تَصْنَعُ - في مُجْمَلِهَا وتَرَاكُمَاتِهَا - الفَرْقَ بين «الدُّول المُتَقَدِّمَة»، وبين تلك التي ما زالتْ تَتَوَسَّلُ سُبُلَ التَّقَدُّم، وتَسْتَجْدِي مُعْطياتِ الآخَرين، وتَتَخَبَّطُ في متاهاتِ البَحْثِ عن «طريق التّنْمية». ومن ذلك المُنْطَلق، فإنّ من المُهِمّ أنْ تَتَبَلْوَرَ لدينا رُؤيةٌ جَامِعَةٌ لمُصْطلحٍ قَادِرٍ على أنْ يَحْتوي ذلك «الحَرَاكَ التّنْمويَّ» الشّامِلَ فنتحدَّثُ - بالضّرورة - عن «الثّقافة التّنْمَويّة»، لنجد - على سبيل المِثال - أنّ كُلَّ تلك «الثّقافات الفَرْعيّة» التي أشرنا إليها مثل «ثقافة المُرُور» و«ثقافة حُقُوق الإنْسان» تَقَعُ ضِمْنَ إطار هذا المُصْطلح الحيويّ الكبير. ومن المُهِمّ - أيضاً - أنْ نَتَوَقَّفَ أمام

ذلك المُصْطلـح الآخَر الذي يشيعُ بين حَامِلي «الهَمّ الثَّقافيّ»، ويَكْثُرُ تَرْديدُهُ بين صَانِعي «القـرار الثَّقافيّ»، وهو مُصْطلحُ «تَنْمية الثَّقافة»؛ فهذا المُصْطلحُ يَقِفُ هَائِماً حَائِراً؛ لأنّه لا يُجِيبُ على أسْئلةٍ عديدةٍ، من أهمِّها: (ما «العناصِرُ الثَّقافيّةُ» التي نَحْتَاجُ إلى تَنْميتِها؟، ومـا «التَّوَجُّهَاتُ الاجْتماعيّةُ» التي نُريـدُ غَرْسَهَا لتَنْمُو وتَزْدَهِر؟، ومـا «المعاني الفِكْريّة» التي نُريدُ لثقافتِنا أنْ تَرْقَى بها؟، وهل «الثَّقافةُ» التي نُريدُ تَنْميتَها هي الأشْكَالُ المَعْهُودَةِ بعُجَرِهَـا وبُجَرِهَا؟، أمْ هل لدينا مَجَاهِرُ تَفْصِلُ الغَثَّ عـن السّمين، ولدينا شُرُوطٌ تُحَدِّدُ ماهيّـة ذلك الذي نُريدُ تَنْميتَه، وذلك الذي ستكونُ في تَنْميتِـهِ نتائِجُ وسَلبيّاتٌ لا تَنْسَجِمُ مع مُقْتضياتِ «التّنْمية» وشُرُوطِهَا؟).

مـن الوَاضِـحِ - إذاً - أنّه لكي تُصْبِـحَ «التّنْمية» في «عَصْرِ العَوْلَمَـةِ»، ووفْق شُرُوطِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، قَادِرةً على التّغلْغُلِ في نسيج المُجْتمع والتَّكَيُّفِ مع مُقَوِّمَاتِه، فإنّنا نَحْتَاجُ إلـى «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» في شُمُولٍ وعُمُوميّةٍ؛ فـ«التّنْميـةُ» تَبْدَأُ من الإنْسان وتَنْتَهي عنده؛ ولذا كان مـن الضّـروري أنْ تكون في صُلْبِ ثقافتِه، وفي عُمْقِ تَفْكيـرِه، وأنْ تكون وَقُوداً مُحَرِّكاً لـكُلِّ تفاعُلاتِـه، ومُوَجِّهَةً لكُلِّ اهْتماماتِـه، ودون هذه الحقيقة تَفْقِـدُ «التّنْميةُ» مضامينَها وتَتَخَبَّطُ وَسَائِلَهَا. ومن الغريب أنْ يتعاقب المُتَحَدِّثون في المؤتمرات، ويتسابق المَسْؤولون فـي المؤسّسـات التّعْليميّة والثّقافيّة والإعْلاميّة إلى الإشادة بالـدَّوْرِ المِحْوَرِيّ لـ«التّنْمية» في حياة الأُمّة ومُسْتَقْبَلِ أجْيالِها، ثمّ تتسابقُ الخُطى، مُنْحَرِفَةً بعيداً عن تَأْصيلِ «العَلاقَةِ العُضْويّة» بين «التّنْمية» و«الثّقافة» في آفاقِها الفِكْريّة والعِلْميّة والاجْتماعيّة، وقُدْرَتِهَا على تَعْميقِ الانْتِمَاء، وتَحْفيزِ القُدْرات، وشَحْذِ العُقُول، وبَلْوَرَةِ الخِيارات.

قد يَسْتَنْجِدُ بعْضهم بمَقُولَةِ (لا مُشَاحَّة في المُصْطلح)، ولكن هذه المَقُولَةَ السّائِدَةَ فـي «الفِكْـرِ العربيّ» وثقافتِه، وربّمـا الأصَحّ أنْ نقول طريقة تَأْويلِهَـا وتَطْبيقِهَا، هي أحدُ أسْبَـابِ وَهَنِ هذا «الفِكْرِ» وضبابيّةِ ثقافتِـه؛ فالحقيقةُ هي أنّ «المُصْطلح» هو الذي يُبْرِزُ المعانـي، ويُؤصِّلُ الشُّـرُوط، ويُحَـدِّدُ الأُطُر؛ ولذا كان أهـمّ أُسُس «الحركـة العِلْميّة» هو اهْتمامُهَا الرّئيسُ بتَحْريرِ المُصْطلحاتِ وضَبْطِهَا بصرامةٍ، وتَحْديدِ التّعْريفاتِ إجْرائيّاً، ممّا جعل إنْجازاتُها تُعانِقُ السَّمَاء. هذه «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ الشّامِلَةُ» هي ما يُطْلِقُ عليه لؤي

صافـي[١٦] اسْم «الثَّقافة النّاهِضَة» ويَصِفُهَا بأنّها: (مُحَفِّزَةً للهِمَم، مُنيرةً للعُقُول)، وهي في رأْيه: (تَتَمَيَّزُ بخصيصَتَيْن رئيسَتَيْن:

١) القُـدْرَةُ علـى توليدِ تضامُنٍ داخِلـيٍّ يَتَمَثَّلُ بتعـاون أَفْرادِ المُجْتمـع النَّاهِضِ وتلاحُمِهِمْ وتَكامُلِ جُهُودِهِمْ.

٢) القُـدْرَةُ علـى تَحْريرِ الطّاقـةِ الخَلّاقَةِ المُبْدِعَـةِ للفَرْدِ والجماعـة، وبالتّالي تَمْكينهم من تَطْويرِ أدواتِهم وزيادةِ فَاعِليّتِهم).

من المُهِـمّ - إذاً - أنْ نَضْبِطَ مُصْطلحنا «الثَّقافيّ - التّنْمَويّ» بحيث يكون لمُصْطلح «الثَّقافـة النّاهِضَـة»، أو مـا نُطْلِقُ عليه هنـا اسْم «الثَّقافـة التّنْمَويّة»، مكانـه المَرْمُوق في إسْتراتيجيّاتنـا؛ فعبْر هذا «المُصْطلحِ» الشّامِلِ تُهَيْمِنُ «شُرُوطُ التّنْمية» على طبيعة «الفِعْلِ الثَّقافيّ» بأنْواعِه وأشْكالِه، وتُغَذِّي مُنْطلقاتُها «الوَسَطَ المُجْتمعيّ» - فِكْريّاً ومَعْرفيّاً ووِجْدانيّاً - في سَعْيٍ دؤوبٍ لإيجاد «التَّوَازُنِ» في النّهْجِ الحياتيّ للإنْسان عبْر تَطْويرِ تفاعُلاته، وتَكْثيفِ الاهْتمامِ بطبيعة العَصْرِ وتحدّياته، وتَرْسيخِ «ثَوابِتِ الأُمّة» وقِيَمِهَا في صِياغةٍ واعيةٍ تتفاعلُ مع «الزَّمان» و«المكان»، وتَحْتَرِمُ عَقْلَ المُواطِن، وتَرْعَى مَصَالِحَ الوطن.

٥-٤-٢) «الشَّرْط الثَّقافيّ» و«التَّنْمية المُسْتَدَامَة»:

لقد اهْتَمّتْ «أدبيَّاتُ التّنْمية» بـ«تَطْويرِ المَوارِد البشريّة»، ووضعتْ الخُطَطُ الخمْسيّة والعشْريّـة والعشرينيّة هذا «المُصْطلحَ» على رَأْسِ قائمةِ أولويّاتها وبرامِجها، ولكن يَبْقَى هذا «المُصْطلحُ» مُجَرَّداً من دَلالاتِهِ ومُفَرَّغاً من أبْعَادِهِ إذا أَهْملنا «المَسْأَلَةَ الثَّقافيّة» التي تُشَكِّلُ فِكْرَ الفَرْدِ وقناعاتِه وتوجُّهاتِه ومُمَارَسَاتِه.

إنّ قضيّةَ «نَقْلِ التّقْنية» تُمَثِّلُ أبْرز أشْكال الخَلَلِ النّاتِجِ عن غِيَابِ «الشَّرْطِ الثَّقافيّ»؛ فقضيّـةُ «نَقْلِ التّقنية» تُراوحُ مكانها في العَالَمِ العربيّ؛ لأنّهـا تَوَقَّفَتْ عند شَكْلٍ وَاحِدٍ من أشْكَالِهَا وهو «عمليّة الاسْتِيراد»، ولم تَسْتَوْعِبْ «التَّجْرِبةُ العربيّةُ» طبيعة هذه القضيّة التي يـرى أرغيري إيمانويل (Arghiri Emmanuel) أنّهـا عمليّةٌ ذات ثلاث مراحِل: «مَرْحلة

الاسْتِيراد»، و«مَرْحلة الاسْتِيعاب»، ومن ثمّ «مَرْحلة خَلْقِ التّكْنولوجيا» وهي مَرْحلةٌ لا يُمْكِنُ أنْ تكون إلاّ (مَرْحلةً مَشْرُوطةً بتقدُّمٍ مُسْبَقٍ على الصّعيدين الاجْتماعيّ والثّقافيّ يكون من الأهميّة بحيث يُشَكِّلُ في الوَاقِعِ قَفْزَةً نَوْعيّةً بالنِّسْبَةِ للمَرْحلة الثّانية.. أَيّ مَرْحلة الاسْتِيعاب)[٢٢].

أمّا «مَفْهُومُ التّنْمية المُسْتَدَامَة»، فهو من أكْثر المفاهيم تداولاً في «أدبيّات التّنْمية» في العُقُودِ الأخيرة[٩]، ولذا فمن المُهِمّ أنْ نَتَوَقَّفَ أمام دَلالاتِهِ الثّقافيّة والاجْتماعيّة وما تَحْمِلُهُ من آثارٍ على تَفْعيلِ المَفْهُوم وتوجيهِه وتوظيفِه. وبالتَّأَمُّلِ المُتأنّي سنجدُ أنّنا نَصْطَدِمُ بـ«حَاجِزٍ ثقافيٍّ واجْتماعيٍّ» يُقَيِّدُ الوَاقِعَ العربيّ، ويُحَدِّدُ مدى النَّجاح في التّعامُلِ مع برامِجِ «التّنْمية المُسْتَدَامَة» سواءً تَبَنَّيْنَا - على سبيل المِثال - ذلك التّعْريفَ المُبَسَّطَ الذي يَنُصُّ على أنّ: («التّنْمية المُسْتَدَامَةُ» هي التّنْمية المُتَجَدِّدَةُ والقَابِلَةُ للاسْتِمْرَار)[٩]، أو اهْتَمَمْنَا بالعناصر التي قادتْ إلى بُرُوزِهِ في المقام الأوّل وهي «الاعْتباراتُ البِيئيّةُ» حيث يُهَيْمِنُ الحِرْصُ على تَرْشيدِ اسْتخدامِ «المَوارِد الطّبيعيّة» لضمان بقائِها واسْتِمْرَارِهَا لأجيالٍ مُتتاليةٍ عبْر ما يَصِفُهُ عبد الخالق عبد الله بـ(السَّعي الدّائم لتَطْوير نَوعيّة الحياة الإنْسانيّة مع الأخْذِ بالاعْتبار «قُدْرات النِّظام البِيئيّ» الذي يَحْتَضِنُ الحياة وإمْكاناتِها)[٩].

إنّ هذا «الحَاجِزُ الثّقافيّ والاجْتماعيّ» ليس وَقْفاً فقط على «المُجْتمعات النّامية»، ولكنّه - أيضاً - حقيقةٌ مَلْمُوسَةٌ في «المُجْتمعات المُتَقَدِّمَة» وإنْ كانتْ له خصائص أُخْرى وطبيعةٌ مُخْتلفة؛ فعندهم برز هذا «الحَاجِزُ» نتيجةً لقُدْرَاتٍ مُتناميةٍ في اسْتِغْلالِ «المَوارِد الطّبيعيّة»، وتَمَدُّدِ رُقَعِهِمْ الصّناعيّة، وتَطَوُّرِ إنْجَازَاتِهِمْ التّقنيّة، وتَنَامي «الرَّغْبَة الاسْتِهْلاكيّة» التي أَسْقَطَتْ من حِساباتِها «قُدْرَاتِ البِيئة» على تَحَمُّلِ ذلك الإنْتاج الغزير والاسْتِهْلاك المُتعاظِم حيث كانتْ النَّظْرَةُ المُهَيْمِنَةُ هي أنّ البِيئة «مُجَرَّدُ وسيلةٍ لتَحْقيقِ التّنْمية»[٩] دون مُراعاةٍ لأيِّ ضَرَرٍ بِيئيّ.

وأمّا «الحَاجِزُ الثّقافيُّ والاجْتماعيُّ» الذي يتصدَّى لمَفْهُوم «التّنْمية المُسْتَدَامَة» في «المُجْتمعات العربيّة» فيَنْبَثِقُ عن سُؤالٍ ثقافيٍّ مَحْضٍ يَفْرِضُ نفْسه إزاء «التّعْريف

التّنْمَـويّ» الـذي يَهْتَمُّ بقُـدْرَاتِ «النِّظَامِ البِيئيّ» علـى احْتِضَانِ الحيـاة وإمْكاناتِها ليكون السُّـؤالُ على النَّحو التّالي: (ومـاذا عن «قُدْرَاتِ الإنْسان» الذي يُعْتَبَرُ الوسيلة والغاية فهو الـذي يَحْتَضِنُ «التّنْمية» بأسْرِهَا، ويَصْنَعُ مُقَوِّمَاتِهَا، ويُوَجِّـهُ آليَّاتِهَا، ويَقْطِفُ ثِمَارَهَا؟)؛ فـإذا كنّـا نَسْتطيع، من تَعْريفـات «التّنْمية المُسْتَدَامَـة»[٩،١١]، أنْ نَصِـفَ «النِّظَامَ البِيئيّ المُسْتَـدَامَ» بأنّه: (النِّظَامُ الـذي تتعايشُ كُلُّ عناصِرِهِ في تَوَازُنٍ قَـادِرَةً على إنْتاج ذَوَاتِهَا ومُقَوِّمَاتِهَـا وتفاعُلاتِهـا)، فإنّـه - إزاء الـدَّوْرِ الجوهريّ للإنْسـان في تَحْقيـقِ «التّنْمية المُسْتَدَامَة» وتَمْكينِها - يَبْرز عُنْصُران لا مناص منهما:

١) قُـدْرةُ الإنْسان على التَّجاوبِ مع «المَنْظُومَةِ التّنْمَويّـة»، والتّفاعُلِ مع مُقَوِّمَاتِهَا في تَـوَازُنٍ، والانْسِجَامِ مـع مُقْتضياتِها الفِكْريّة والحياتيّـة والثّقافيّة والبيئيّة، والتَّكَيُّـفِ مع شُرُوطِهَـا العِلْميّة والعمليّـة، وتَحْقيقِ الكفاءَة فـي تَطْويرِ أدواتِها وتوظيفِ مُعْطياتِها على الصَّعيدِ المحلّي المُباشِر.

٢) انْسِجَـامُ «المَنْظُومَـةِ التّنْمَويّة» ذاتِها مع قِيَمِ المُجْتمـع ومُعْتقداته ومُمَارَسَاته لتجـد لها على أرْضِ الوَاقِعِ الحياتيّ سَنَـدَاً ودَعْماً ومُنْطَلَقـاً لتَعْزيزِ مكانتِها، وتَعْظيمِ دَوْرِهَا، وتَفْعيلِ آليّاتِها.

مـن المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ، عنْد التّعامُـلِ مع «العُنْصُرِ البشريّ»، أنّ القضيّةَ ليست قضيّة تَعْليـم وتَدْريبٍ وتَأْهيلٍ فقط، بَلْ هي أَعْمق من ذلـك بكثيرٍ؛ فقد تتساوى معاييرُ الدِّراسة الأكاديميّـة، وتتوافقُ عناصِرُ التّأْهيـل، وتَتَّحِدُ مُكَوِّنَاتُ التّدْريـب، ولكن الأداء في «الدُّول المُتَقَدِّمَـة» يَبْقَـى أعْلى بكثيرٍ من الأداء في «الدُّول النّامية» كمـا أَثْبَتَتْ التّجاربُ وحقائقُ الوَاقِـع؛ ولـذا تَسْتَمِرُّ الفَجْوَةُ قَائِمَـةً - إنْ لم تَزِدْ اتِّساعاً - بالرّغْم مـن اسْتِمْرَارِ تَحْديثِ البرامِـج والتّجْهيـزات في «الدُّول النّاميـة»، ممّا يَجْعَلُنَـا نَقِفُ أمام وَجْهٍ بَـارِزٍ من أَوْجُهِ «إشْكَالِيّة التّنْمية» المُسْتَفْحِلَةِ على مدى عُقُودٍ في العَالَمِ العربيّ.

هـذه الحقائِـقُ تعودُ بنا من جديدٍ إلى تلـك «القضيّة الغَائِبَة» وهـي قضيّةُ «الثقافة التّنْمَويّـة» التـي تُصْبِحُ فيها «التّنْمية» قِيمَـةً ثقافيّةً وفِكْريّةً ومَسْلكيّـةً واجْتماعيّةً لتتحقَّقَ

شُرُوطُ «البيئة الصّالِحَة»، ولتَصْنَعَ «الوَسَطَ الفَعّالَ» لتَنْمية طاقاتٍ وقُدْراتٍ بشريّةٍ تَحْتَرِمُ مهنها، وتُطَوِّرُ مهاراتها، وتَهْتَمُّ بالإتْقان، وتَتَحَلَّى بأخْلاقيّاتِ العمل، وتَحْرِصُ على الإنْجاز، وتُوَظِّفُ - بكفاءَةٍ - الإمْكانات والمَوارِد. ولأنّ «الثَّقافة» فِكْرٌ ووَعْيٌ وتفاعُلٌ وسُلُوكٌ يَطْبَعُ عَقْلَ الإنْسان، ويُحَدِّدُ خياراته، ويَشْحَذُ وِجْدانَه؛ فإنّ المَطْلوب هو «ثقافةٌ تَنْمَويّةٌ» تَنْتَشِرُ عبْر نسيج الوطن، وتَتَغَلْغَلُ في خلايا المُجْتمع لتَرْقَى بالمدارك، وتَرْفَعَ من القُدْرات، وتَرْبُطَ المُواطِنَ بقضاياه، وتَدْفَعَ بمُخْتلف الشّرائح والطّبقات إلى مساراتٍ فَاعِلَةٍ من التّجانُس والحِوار، وإنْ تباينتْ وِجْهَاتُ النَّظَر، وتعدَّدَتْ وسائلُ الأداء. ومن الضّروريّ أنْ تَتَمَتَّعَ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» بديناميكيّةٍ تَجْعَلُ منها تفاعُلاً نَشِطاً على امْتداد ساحة الوطن، وفي كُلِّ مَواقِعِه، لتَخْرُجَ من لازِمَةِ «المُثقَّف النُّخْبَويّ»، وتُحَرِّكَ البُنى التّنْمويّة والمَوارِد البشريّة لتَحْسينِ المُسْتويات المعيشيّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والتّعْليميّة، فتُقَاسُ كفاءَةُ «المُثقّف» وعطاؤه بقُدْرَتِه على الالْتِحَام بوَاقِعِ الجُمْهُور، والتّعامُلِ مع تحدِّياتِ المَرْحلة.

إذاً لكي تَتَحَقَّقَ أهمّ شُرُوطِ «التّنْمية المُسْتَدَامَة» من النّاحية البشريّة والفِكْريّة والمُجْتمعيّة، فإنّ على «الثَّقافة» أنْ تَحْتَضِنَ النَّاسَ في منازلِهم ونواديهم ومدارِسِهم وجامعاتِهم وأعْمالِهم، وأنْ تكون غايتُها الالْتِحَامَ مع حيواتِهم ومُشْكلاتِهم وهُمُومِهم، والرُّقيّ بوَعْيِهم وعطائِهم؛ ليتناغم كُلُّ ذلك مع ظُرُوفِ زمانِهم وتحدِّياتِ عَصْرِهم، فتَتَحَوَّلُ بذلك «الثَّقافةُ» إلى جُهُودٍ مُلازِمَةٍ لمُخْتلف مُتطلَّبات الحياة، ونشاطٍ دؤوبٍ يَنْحَتُ في قِوَامِ الوطن لتَشْكيلِ الرُّؤى، وتَحْفيزِ القُدْرات، وتَطْويرِ السُّلُوكيّات، وتَعْميقِ الانْتماء.

وأمّا العُنْصُرُ الثّاني من شُرُوطِ «التّنْمية المُسْتَدَامَة»، المُتَمَثِّلُ في تَحْقيقِ «التَّجَانُسِ الثَّقافيّ» بين المُجْتمع وعَصْرِه، فيَكْمُنُ في رُؤىً وتوجُّهاتٍ قَادِرَةٍ على رَبْطِ المُواطِن بقضاياه عبْر التَّواؤم والحِوار وتَفْعيلِ نَمُوذَجِ «التَّوَافُقِ التّنْمَويّ»، الذي طرحناه في الفَصْلِ الرّابع، فقد اتّضَحَ أنّ أبْرز مَثَالِب «الحَدَاثَةِ العربيّة» أنّها تَمَثَّلَتْ حَدَاثَتَهَا في إعْلان الحرْب على الأُطُرِ الضَّابِطَةِ في مُجْتمعها، واسْتِفْزَازِ شَرَائِحِهِ المُحَافِظَة، والتّمَرُّدِ على «المَنْظُومَةِ الفِكْريّة والقِيميّة»، وبذلك اسْتَعْدَتْ قطاعاتٍ وَاسِعَةً ومُتناميةً في مُجْتمعاتِها؛ وبطبيعة الحال، ليس من المُتَوَقَّعِ أن يُنْتِجَ مثْل ذلك التَّوجُّه الاسْتِفْزازيّ اسْتِقْراراً مُجْتمعيّاً

يُسْهِمُ في تَطْويرِ المَوارِد البشريّة والطّبيعيّة، ويُنَمِّي البُنى التّحتيّة والهياكِل التّنْظيميّة، ويُؤسِّسُ لفِكْرٍ نَاضِجٍ في التّعامُلِ مع قضيّة «التّنْمية المُسْتَدَامَة».

٥-٤-٣) مَأْزِقُ المُصْطلح و«الإنْسانُ الجديد»:

لقد وَقَعَتْ المؤتمرات والنّدوات والدِّراسات - في العَالَم العربيّ - في مَأْزِقِ تَعْريف مُصْطلح «الثَّقافة»، ولا ضَيْرَ من تلك المُحاولات، لو أنّها خَلَصَتْ إلى تَعْريفٍ يَدْفَعُ بقضيّة «الثَّقافة» إلى فضاءٍ حيويٍّ يتفاعلُ مع مُشْكلات المُجْتمع، ويُحَقِّقُ شُرُوطَ «التّنْمية المُسْتَدَامَة»، ويَتعرَّفُ على «رُوحِ العَصْر»، ويَسْتَوْعِبُ حَقَائِقَهُ ومُقَوِّمَاتِه؛ ولكن يَبْدُو أنّ «مُشْكلة المُصْطلح» ما زالتْ تَتَرَنَّحُ في قَوالِبِهَا التّقْليديّة الاجْتِرَاريّة لتُصْبِحَ «الثَّقافةُ» مُجَرَّدَ تَرَفٍ تُمَارِسُهُ «المُجْتمعات العربيّة»، وتَتَسَلَّى به في سُويعاتِ الأُنْسِ وليالي السَّمَر، ولتتبنَّى ذلك الوَاقِعَ الذي أَحْسَنَ زكي نجيب محمود في وَصْفِهِ عندما قال: (كَمْ من كَاتِبٍ يَكْتُبُ ليُسَلِّي وكأنّه النَّديم في مجال الطَّرَب، وكَمْ من مُتَحَدِّثٍ يَتَحَدَّثُ تَجْميداً للحركة لا تَحْريكاً للسُّكُون؟)[٢٠]. وأمّا عندما يرى لؤي صافي[١٦] أنّ: («حركة التّنْمية» تَتَوَقَّفُ على توفُّرِ مَجْمُوعَةٍ من الشُّرُوطِ الثَّقافيّة والاجْتماعيّة)؛ منْها: (تَوَجُّهُ سُلُوكِ أفْرادِ المُجْتمع نحو الإنْتاج بنَوْعَيْهِ الفِكْريّ والمادّيّ)، ومنْها: (ظُهُورُ حركةٍ فِكْريّةٍ وعِلْميّةٍ نَاشِطة)، فإنّنا نَقْتَرِبُ هنا - بشَكْلٍ عَامٍّ - من مَفْهُومٍ لـ«الثَّقافة» ذي «فَاعِليّةٍ اجْتماعيّةٍ» ودَوْرٍ حيويّ.

من هنا نَسْتطيع أنْ نَفْهَمَ الدَّلالاتِ العميقة الكَامِنَةِ في المَفْهُوم الذي أَسْمَاهُ زكي نجيب محمود «الإنْسان الجديد» حيث كتب يقول: (قضيّةُ بِنَاءِ «الإنْسان الجديد» قضيّةٌ من قضايا «التَّحْويل» التي تَتَطَلَّبُ «سياسةً» لا تجيء من رِجَالِ السِّياسة بالمَعْنَى المَعْروف لهذه التَّسْمية، لأنّ مِثْلَ هذا «التَّحْويل» في بِنَاءِ الإنْسان لا يكون إلاّ إذا تَغَيَّرتْ وِجْهَاتُ النَّظَرِ واتِّجاهاتُ السَّيْرِ والأهْداف)[٢٠]. وأمّا ما يُطَالِبُ به حَشْدٌ من الكُتّاب والمُثقّفين حول ما اشْتَهَرَ باسْم «المُنَاخ العِلْميّ»، فإنّ من أبْرز مُتطلَّباتِه شُرُوطاً يَصِفُهَا زهير الكرمي بقوله: (وحتّى يكون هناك «مُنَاخٌ عِلْميٌّ» في مُجْتمعاتِنا يَتَحَتَّمُ أنْ تكون لـ«العِلْم» مكانتُهُ المَرْمُوقَةُ في نُفُوسِ النّاس، ويجب أنْ يَحُسَّ كُلُّ فَرْدٍ في المُجْتمع، وعلى جميع

درجـات المَسْؤولية، بأهميّة «العِلْم» وخَطَره، وأنْ يكون هناك اسْتِعْدَادٌ نَفْسيٌّ وفِعْليٌّ لتقبُّلِ نِتَاجِ «البَحْثِ العِلْميّ» وتَأْثيراتِه في حياة النّاس من جميع وجوهِها)[٧٧].

خُلاصَـةُ القول، إنّه إذا كان (مِعْيارُ «التّنْميـة» الحقيقيّ هو الكفاءَةُ والفَعّاليّة)[١٢]، فإنّنـا حَتْماً سنَحْتَاجُ إلى «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» قَادِرَةٍ على توفيرِ الدَّوافِعِ والحَوافِزِ والاهْتماماتِ والتّوجُّهـاتِ والمُمَارَسَاتِ التـي تَسْتطيع أنْ تُحَوِّلَ المُجْتمع إلى خَليّـةٍ نَشِطَةٍ وبَوْتَقَةٍ فَاعِلَةٍ عبْـر إحْدَاثِ تلك التّراكُمات التّدْريجيّة فـي التّجارِب والقناعات والتّفاعُلات، فكما يقولُ زكـي نجيب محمود[٢٠]: (لا تَحْدُثُ الثَّـوْرَةُ الفِكْريّةُ - بمعْنَى إحْلال مَجْمُوعَةٍ من المبادئ النّظريّـة محلّ مَجْمُوعَةٍ أُخْرى - دُفْعَةً وَاحِـدَةً، أو على الأقلّ إنّ مِثْل هذا التّغيُّر المُفاجئ لطريقـة التّفْكير لم يَحْـدُثْ خلال التّاريخ، وإنّمـا تَتِمُّ الثَّوْرَةُ الفِكْريّةُ بتحـوُّلاتٍ تدْريجيّةٍ تَنْقُـلُ النّاس شيئـاً فشيئاً من نَمَطٍ فِكْريٍّ قديـمٍ إلى نَمَطٍ آخَر جديـد)، ويُواصِلُ ليقول: (وعقيدتـي هي أنّ ثَوْرَةً فِكْريّةً كهـذه لم تَحْدُثْ لنا خلال هذا القَرْن كلّه، برغم التّغيُّرات الكثيـرة والمُهِمّة، التـي طَرَأَتْ على صُورة الحياة، وذلك لأنّ النّمَـطَ الفِكْريَّ القديمَ باقٍ كما كان دائماً، والعجيب الذي يُلْفِتُ النَّظَرَ هو أنّ الفَجْوَةَ الكَائِنَةَ بين ذلك النَّمَطِ الفِكْري مـن جِهَةٍ، وتَفْصيلاتِ الحياة الجديدة من جِهَةٍ أُخْـرى، لا تُحْدِثُ فينا شيئاً من القَلَقِ أو التَّوَتُّر، الذي لو حدث، لحَفَّزَنَا إلى سَدِّ الفَجْوَةِ بالمُلاءَمَةِ بين المبادئ العامّة وتَفْصيلات الحيـاة العمليّة). وأمّا عندما يـرى محمد عابد الجابري بأنّ: (الخِطَابُ العربيّ الحديث والمُعَاصِرُ كان في جُمْلَتِهِ، ولا يزال، «خِطَابَ وِجْدَانٍ» وليس «خِطَابَ عَقْل»)[٦٧]، فإنّ ذلك يَعْنِـي أنّ الحاجـة مَاسّةٌ إلى إحْدَاثِ «نَقْلَةٍ نَوْعيّةٍ» في «الخِطَـابِ العربيّ» تُغَيِّرُ خصائِصَه مـن «خِطَـابِ وِجْدَانٍ» إلى «خِطَابِ عَقْـلٍ»؛ ففي نهاية المطاف هذه «النَّقْلَـةُ النَّوْعيّةُ» هي الأهمّ في حيـاة الأُمّة، وهي الضّروريّة لحَلِّ إشْكالاتِها المُتَفاقِمَة؛ لأنّ ذلك التَّحَوُّلَ يَعْنِي، وفْق المَقُولَةِ الشّكسبيريّة المَشْهُورَة،: (أنْ نكون أو لا نكون).

كُلّ هـذه الحقائِق تَفْرِضُ على «المُجْتمعات العربيّـة» تَلَمُّسَ طريقها - بحِكْمةٍ - في عَالَـمٍ يموجُ بالتّحدّيات والمُفَارَقـات، وتَخْتَلِطُ فيه الأوراق من كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، وتتداخلُ فيـه الأطْيافُ الفِكْريّة من كُلِّ لـونٍ وصِنْفٍ، ونَتَّفِقُ بالضّرورة هنا مع عبد الله عبد الدّائم

وهـو يَخْلُصُ إلى نتيجةٍ مُهِمّةٍ وهي أنّ: (أيّ حديثٍ عن دَوْرِ المُثقَّفين في المُجْتمع العربيّ حديـثٌ لا مَعْنَـى لـه ولا طائِل وراءه إنْ لـم يَعْنِ تَعْبئـة الطّاقة الثّقافيّة مـن أجل القضاء علـى التّخلُّفِ ومن أجـل بِنَاءِ مُجْتمعٍ عربيٍّ جديـد)[١٨]. ولذا فإنّ من المُهِـمّ أنْ نَحْرِصَ على «توجيـه الثّقافة» نحو أغْرَاضٍ تَنْمَويّةٍ فَاعِلَةٍ، وإشْرَاقَـاتٍ فِكْريّةٍ مُضيئةٍ، ومُمَارَسَاتٍ إنْتاجيّةٍ مَلْمُوسَةٍ، وتَوَجُّهَاتٍ عَقْلانيّةٍ هَادِفَةٍ، وتَأْسيس ذلك «الإنْسان الجديد» القَادِرِ على اسْتيعـاب تحدِّيات زمنه؛ وبذلك تَتَحَرَّكُ «القَافِلَـةُ الثّقافيّةُ» في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن» عبْر «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» نَشِطَـةٍ، ويَتَقَلَّصُ تَأثيرُ ما وَصْفْنَاهُ بمُحاولاتٍ بَهْلوانيّةٍ تَسْعَى إلى أنْ تعيش «الثّقافة العربيّة» دَاخِلَ «الزَّمن» وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِد.

٥-٤-٤) «الثّقافة التّنْمَويّة» والمعارِف الإنْسانيّة:

مـن الخصائِـص الأساس لـ«الثّقافـة التّنْمَويّة» أنّهـا تَحْتَضِنُ كُلَّ أنْمَـاطِ المعارِف الإنْسانيّـة، والأبْعَـادِ الوِجْدانيّـة، والإبْداعـاتِ الفنيّـة، والاهْتماماتِ الثّقافيّـة؛ فتتفاعل جميعها - في حيويّةٍ - مع ضَروراتِ «التّنْمية» وتحدِّيات «العَصْر» عبْر جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنيـة» مُكَوِّناً عُضْوياً من مُكَوِّنَاتِ «الثقافة»، فتكون «الحركةُ التّنْمَويّةُ»، بكُلِّ مُعْطياتِها وضَوابِطِهَـا ومُقْتضياتِها، هَاجِسـاً مُقيماً يَحْتَـلُّ مِساحتَه وأولويّتَه في الجُهُـودِ الثّقافيّة، والاهْتماماتِ الفِكْريّة، والإبْداعاتِ الإنْسانيّة.

يُخْطِـئُ من يَعْتقد أنّ احْتِضَـانَ «الحركة العِلْميّة - التّقنيـة» بصفتها أولويّةً في حياة المُجْتمعات، والحِرْصَ على اسْتِنْبَاتِ «الثّقافة العِلْميّة» في تُرْبَةِ «الثّقافة العربيّة» المُعَاصِرَة، يَحْملان تَهْميشاً أو انْتقاصاً من قَدْرِ «الآداب والعلوم الإنْسانيّة»؛ فهذه العلوم جُزْءٌ جوهريٌّ مـن «الفِكْرِ البشـريّ» وتفاعُلاته ومُتطلَّباتـه، وإيقاعُ الحيـاة المُعَاصِرَةِ يَفْرِضُ الاهْتمام بمُخْتلـف أنْواع العلوم والآداب والفنون واحْتِضَانِ الشِّقَّيْـن الرّئيسَيْن في النّشاط البشريّ: «العِلْمـيّ» و«الإنْسانيّ»، وما يَنْجُمُ عنهما مـن تفاعُلاتٍ ومُزاوَجَاتٍ وتلاقُحات. أمّا الحقيقةُ البدهيّـةُ فهـي أنّ «الآداب والعلوم الإنسانيّة» في حاجةٍ إلى بيئةٍ مُزْدَهِرَةٍ تَتَّسِعُ فيها الآفاق، وتَتَهَيّـأُ الوسائِـل، وتَتَعَدَّدُ الفُرَص، وتَتَنَوَّعُ المُعْطيات، وتَتَوَفَّـرُ الإمْكانات؛ وكُلُّ هذا حَتْماً لن

يَتَحَقّـقَ إلاّ بـ«حركةٍ عِلْميّةٍ – تقنيّةٍ» تَدْفَعُ نحو الإنْتاجيّة، وتَسْتَكْشِفُ الفُرَص، وتَصْنَعُ أدواتِ «التّنْمية»، وتُنَوِّعُ مصادِرَ الدَّخْل، وتَفْتَحُ آفاق الاسْتثمار، وتُطَوِّرُ أحْوال المُجْتمع.

إنّ اعْتمـاد «العلوم الإنْسانيّة» على مُعْطياتِ «العلـوم الطَّبيعيّة» أمْرٌ لا مَفَرّ منه؛ لأنّ «البِنْيَـةَ التّحْتيّة» لـ«مُجْتمـع المَعْرِفَة» هي «بِنْيَـةٌ عِلْميّةٌ – تقنيّـةٌ»[٧٨]؛ فالعَصْرُ هو عَصْرُ «العلـوم والتّقْنيـة»، والهَيْمَنَةُ الفِكْريّة والاقْتصاديّة والثّقافيّـة والعَسْكريّة والإعْلاميّة هي لمـن يُنْتِجُ أدواتِـه، ويُطَوِّرُ مُعْطياتِه، ويُوَظِّفُ مَـوارِدَه؛ فـ«العِلْمُ والتّقنيـةُ» – شِئْنا أمْ أبينا – يُشَـكِّلان المُجْتمعات الحديثة، ويُعْتَبَران «النّواةَ الحقيقيّـة» للتّغْيير والتّطْوير والإنْتاج، ويُشَيِّـدَان «البِنْيَةَ التّحْتيّةَ» لبيئةٍ مُنْتِجَةٍ تَزْدَهِرُ في أرْوِقَتِهَا «الآداب والمعارِف الإنْسانيّة»، وتُطَـوِّرُ فـي رِحَابِهَا إبْداعاتِها المُتَنَوِّعَة. لا شَكّ في أنّه دون تلـك «البِنْيَةِ التَّحْتيّة» العِلْميّة والتّقنيّـة، ودون ذلـك التّأْسيـس المَعْرفـيّ المُعَاصِـر، فـإنّ كُلَّ المُنَظِّريـن والفلاسفـة وأصْحـاب «التّخصُّصات الإنْسانيّة» سيسيرون علـى خُطَى شَاعِرِنَا الذي وجد أنّ رَضِيعَهُ إذا بَلَغَ الفِطَامَ (خَرَّتْ له الجبابِرُ سَاجِدِينَا)، وهم سيُعانِقُون «الوَهْمَ» الذي جعل صاحبُنا يَعْتقـد أنّ غيرنـا (يَشْرَبُ كَدَرَاً وطِينَا). وأمّا ما هو أكْثر مـن ذلك فإنّ العَارِفين بحقائِق العَصْـر يُدْرِكُـون أن مُصْطلحات «العلوم الطّبيعيّة» وأدواتِها قد غَـزَتْ كُلَّ جَوانِبِ «الفِكْرِ الإنْسانـيّ» لتُعِيـدَ قَوْلَبَـةَ أفْكارِه وصِياغَـةَ تصوُّراتِـه وأساليبِه في النّقْـدِ والتّحْليلِ بحيث أَصْبَحَـتْ «المعارِفُ الإنْسانيّةُ» تَعْتَبِرُ نَفْسَهَا «عِلْميّـةً» بقَدْرِ ما تَقْتَرِبُ من «المَنْهَجِ العِلْميّ – التَّجْريبيّ»، وبقَدْرِ ما تُوَظِّفُ مُصْطلحاتِه وأدواتِه في نِطَاقِ ما تَسْمَحُ به خصائِصُ تلك المعارِف وظُرُوفُهَا ومُتَغيِّراتُهَا ورَكَائِزُهَا.

مـن هذه المُنْطَلقـات الوَاقِعيّة والعمليّـة والفِكْريّة والمَنْهَجيّة كانـتْ الدَّعْوَةُ لأولويّة «العلوم والتّقْنية» تَأْتِي – غَالِباً – من أصْحاب «التّخصُّصات الإنْسانيّة» أنفسهم؛ لإدْرَاكِهِمْ أنّ ازْدهـار مُجْتمعاتِهم ومَصَالِحِهِمْ المُبَاشِرَةِ تَكْمُنُ في «بيئةٍ نَشِطَةٍ» ذات إنْتاجيّةٍ فَاعِلَةٍ قَـادِرَةٍ على تَأْميـنِ مُتطلَّباتِ الرّفاهية والحياة الرّغيدة، وتوليـدِ مجالاتٍ فسيحةٍ وفُرَصٍ مُتَنَوِّعَةٍ في فِعْلٍ تراكُميٍّ مُتلاقِحٍ تَنْمُو مُتطلَّباتُه، وتَتَّسِعُ احْتياجاتُه، وتَنْتَشِرُ عناصِرُه، ليجد أصْحابُ «التّخصُّصات الإنْسانيّة» في دَاخِلِهِ فُرصَهُمْ الوظيفيّة والتّطْويريّة والإبْداعيّة.

أمّـا الوَجْهُ الآخَرُ للعُمْلَةِ الحياتيّةِ، فهو ضَـرورةُ «التَّكَامُلِ المَعْرفيّ - الإبْداعيّ» بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«العلوم الإنْسانيّة»؛ فأبْعَادُ الحياة المُتَنَوِّعة وتَعْقيداتُ العَصْرِ المُتنامية تَفْرِضُ - بالضّرورة - أهميّة التّفاعُلِ الإيجابيّ والتَّضَافُرِ المَعْرفيّ بين «العلوم الطَّبيعيّة» و«المعـارِف الإنْسانيّـة» في رُؤىً مُعَاصِـرَةٍ تَفْهَمُ خصائِصَ «الزَّمن» بحصافـةٍ، وتُعالِجُ إشْكاليّاتِه بحيويّةٍ، وتتصدَّى لتحدّياتِه بعُنْفوانٍ؛ ولذا تَكْتَظُّ «المُجْتمعاتُ المُتَقَدِّمَةُ» بجُهُودِ البَاحِثيـن والعَامِلين - في مجـالات العلوم الاجْتماعيّة والدِّراسـات اللغويّة وتخصُّصات التّربيـة والاقْتصـاد والإدارة والسّياسـة - وهم يسعون حثيثـاً لدِرَاسَةِ الطُّـرُقِ المُخْتلفةِ والمُلائِمَـةِ لإيجاد مَشْرُوعاتٍ وبَرَامِـجٍ وتخصُّصاتٍ تَدْمُجُ العلـوم الطّبيعيّة والتّطْبيقات التّقنيّـة والمفاهيـم الحياتيّـة المُعَاصِرَةَ ضمْـن تفاعُلاتِهـم الأكاديميّـة، واهْتماماتِهم البَحْثيّة، وفعّاليّاتِهم المُجْتمعيّة.

مـن نَافِلَةِ القـول إنّ العَلاقَةَ الحميمةَ بين «العلوم الطَّبيعيّـة» و«المعارِف الإنْسانيّة» تَنْبَثِـقُ - تِلْقائيّاً - مـن مُقَوِّمَاتِ الإنْسان العَقْليّة والوِجْدانيّة والحياتيّة، ولذا فإنّ المُجْتمع المُزْدَهِـرَ هو ذلـك الذي يَسْتطيـع أن يُحَلِّقَ - فـي تَـوَازُنٍ وتَنَاسُقٍ - بجَنَاحَيْـهِ، «العلوم الطَّبيعيّـة» و«المعارِف الإنْسانيّة»، اللذيـن يتشكَّلان من كُلِّ صُنُوفِ العلوم وأنْواعِ المَعْرفة واجْتهاداتِ البشر، ولن يَسْتطيع الجَنَاحَان أنْ يُحَلِّقَا في أجْوَاءِ الإبْداعِ والإنْجازِ إلاّ بتَوَافُرِ «مَصْدَرِ الطَّاقة» الذي يُحَرِّكُهُمَا ويَدْفَعُهُمَا، وهو - بالضّرورة - يَكْمُنُ في «العلوم الطَّبيعيّة» وتَطْبيقاتِها، وبدونه لن يَسْتطيع الجَنَاحَان أنْ يَخْفِقَا، وسيَبْقِيَان عِبْئاً على «جَسَدٍ له خُوارٌ» مُتَهَالِكٍ لا يَسْتطيعُ دَفْعاً ولا صَدّاً.

مـن نَافِلَةِ القول - أيضاً - أنْ لا بُدَّ لـ«الثَّقافـة التّنْمَويّة» أنْ تَنْتَمِيَ إلى ذلك الصِّنْفِ مـن «الثَّقافة» الـذي وَصَفَهُ عبـد الله عبد الدائـم[١٨] بأنّه: (ثقافـةٌ جَادّةٌ تُقَـدِّمُ لأبْنَاء المُجْتمع على مُخْتلف مُسْتوياتهم أجْوبةً وَاقِعيّةً عن مُشْكلاتِ حياتهم وأمْرَاضِ مُجْتمعهم ومَطَالِـبِ مُسْتَقْبَلِهم)، وفـي الوَقْت نفْسه فإنّ هذه «الثّقافـةَ المُلْتَزِمَةَ بهُمُوم المُجْتمع» لا يُمْكِـنُ لهـا - بطبيعتِها وغاياتِها - أنْ تُهْمِلَ الجماليّـاتِ والمَشَاعِرَ والوِجْدَان، وهي بذلك تَنْسَجِمُ مع ما طالب به عبد الله عبد الدائم بضَرورة أنْ لا يُهْمِل المُثقَّفون: (ألْوان الثَّقافة

المُتَنَوِّعَة التي تُغَذِّي الإحْسَاسَ بالجمال وتُغْنِي المَشَاعِرَ الإنْسانيّة على اخْتلاف أنْواعِها، وتُفَتِّقُ الخيالَ الذي هو شَرْطٌ من شُرُوطِ الإبْدَاع). وأمّا في نهاية المطاف، كما يُؤكِّدُ عبد الله عبد الدائم[١٨]، فإنّ: (في وَسْعِ «الثَّقافة الرَّفيعة»، أيّاً كان الموضوع الذي تُعَالِجُهُ أنْ تُقَدِّمَ زاداً فِكْريّاً وعَاطِفيّاً وجماليّاً هو بحقٍّ من أهمّ مَواقِد التَّغْيير الاجْتماعيّ، ومن أبْرز وسائِـل الرّبْطِ بين تَفْتيحِ الإنْسان وتَفْتيحِ المُجْتمع). وأمّا الحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها فهي أنّه عندمـا تَنْصَهِرُ المعارِفُ الإنْسانيّـةُ والدِّراساتُ الأدبيّةُ والاهْتمامـاتُ الفنيّةُ والرُّؤى المُجْتمعيّـةُ في بَوْتَقَةِ «الثَّقافـة التّنْمَويّة»، فإنّها تَدْخُلُ عَصْرَهَا، وتُغَـادِرُ أطْلالَهَا، وتقومُ بدَوْرِهَـا الحيويّ في تَشْكيـلِ الوِجْدَانِ وتَجْييشِ العَاطِفَةِ وتَقْويـمِ الفِكْرِ للتّعامُلِ الفَعَّالِ مع قضايا المُجْتمع وتحدِّياتِه في تفاعُلاتٍ وإبْداعاتٍ تتلاقحُ مع التَّغَيُّرَاتِ المُتَسَارِعَة، وتُحَفِّزُ علـى «العمل الجماعيّ» في اتِّجَـاهِ «سَهْمِ الزّمن التّنْمَويّ» فتَحْمِلُ – فـي حَرَاكِهَا – رَائِحَةَ زَمَنِهَا، وضَوْضَاءَ حضارتِها، وعَرَقَ عَصْرِهَا.

لا شـكّ فـي أنّ أبْرز ما يُمَيِّـزُ «الثَّقافة التّنْمَويّـة» هو ما وَصَفَهُ زكـي نجيب محمود بـ«الفيروس العَقْليّ» الـذي يَتَجَلَّى في تلك: (الرَّغْبَة الحَارِقَة عنـد الإنْسان في أنْ يَعْمل، وأنْ يظـلَّ عملُه يَزْدَادُ، فتَزْدَادُ ثِمَارُهُ كَثْرَةً في الكَمِّ وتَجْويداً في الكَيْف: هي شَرْطُ التَّقَدُّم الحضاريّ عند الفَرْدِ وعند الجماعة)[٢٠]؛ وبهذا تَتَمَكَّنُ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» من «الاسْتِجَابَةِ» الفَاعِلَةِ للتحدّياتِ المُعَاصِـرَةِ في «المُجْتمعات العربيّة»، وتكونُ قَادِرَةً على اسْتِفْزَازِ ذلك القَلَقِ المُتَجَدِّدِ والتَّوَتُّـرِ الحيويّ الدَّافِعَيْن نحو تَغْييرِ الوَاقِع، وتَطْويرِ الإمْكانات، والقَضَاءِ على عناصِرِ التَّخَلُّفِ ومَكَامِنِ الضّعْف.

وهكـذا نجدُ أنّ «الثَّقافة التّنْمويّة» لا تُعْنَى فقط بالماديّات والتّقْنيات والعلوم الحديثة والتّأْصيـل العَقْلانيّ، وهي لا تَعْنِي بحـالٍ رؤيةً مُنْتَقِصَةً لـ«المعـارِف الإنْسانيّة»، ولا تُكَرِّسُ ازْدِرَاءً لـلآداب والأنْشطة الفنيّـة، وهي لا تُلْغِي الحِسَّ الجماليّ والعُنْفـوانَ الوِجْدَانيّ؛ فكُلُّ ذاك أمْـرٌ مُسْتحيلٌ ومُنَاقِضٌ للفِطْـرَةِ البشريّة؛ فالأدبُ والاهْتمامـاتُ الإنْسانيّةُ والحماسُ العَاطِفـيُّ والانْطلاقـاتُ الوِجْدَانيّـةُ بأشْكَالِهَا المُتنوِّعـةِ وامْتداداتِها الخِصْبَـة؛ كُلُّها جُزْءٌ جوهريٌّ من تَجْرِبَةِ الإنْسان أينما كان، وهي في «العَقْلِ العربيِّ» أشَدُّ الْتِصَاقاً وأقْوى مَكَانَةً.

إنّ «الثّقافة التّنْمَويّة» هي تلك الثّقافةُ القَادِرَةُ على أنْ تَخْرُجَ من «المَأْزِقِ القديم - الجديد» بمُعَادَلَةٍ عَادِلَةٍ لـ«الثّقافة العربيّة» تَجْمَعُ - في تَنَاسُقٍ وتَكَامُلٍ - بين «جَنَاحَيْ المَعْرِفَة» في أُطُرِهَا الإنْسانيّة والعِلْميّة، وتُعْطِي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه، وتَفْسَحُ المجال لـ«الحركة العِلْميّة» لكي تَتَغَلْغَلَ في «نسيج المُجْتمع»، وتُوَطِّدَ دَعَائِمَهَا في «الفِكْرِ العربيّ المُعَاصِر»، وتُصْبِحَ غِذَاءً فِكْريّاً ورُوحيّاً ومَعْرفيّاً ومَعْلُوماتيّاً يَسْعَى لإيجاد «التَّوَازُن» في النَّهْجِ الحياتيّ للمُواطِن، ويَهْتَمُّ بتَطْوير تفاعُلاتِه المُتَنَوِّعَة، ويُكَثِّفُ الاهْتمامَ بطبيعة العَصْرِ وتحدّياته، ويُرَسِّخُ ثَوَابِتَ الأُمّة وقِيَمَهَا عبْر صِياغَةٍ وَاعِيَةٍ تتفاعلُ مع «الزَّمان» و«المكان» وعُقُولِ النّاسِ وهُمُومِهِمْ.

وأمّا حين نَتَّفِقُ مع مالك بن نبيّ بأنّ: («الثّقافة» في صُورتِهَا الحَيّة هي وَحْدَةٌ ذات أجْزاءٍ مُتَمَاسِكَةٍ ومُتَرَابِطَةٍ بروابط دَاخِليّةٍ تُحَدِّدُهَا عَبْقريّةُ الشّعْبِ الذي وضعها مُطَابِقَةً لأخْلاقِه وأذْواقِه وتاريخِه)[٢]، فإنّ هذا يَجْعَلُ مُصْطَلَحَ «الثّقافة التّنْمَويّة» مُصْطَلَحاً مُتَعَدِّدَ المُكَوِّنَاتِ ومُتَدَاخِلَ السِّمَاتِ في تَنَاغُمٍ وانْسِجَامٍ، لتكون «الثّقافة التّنْمَويّة» - بالضّرورة - ثقافةً مُتَوَازِنَةً في مُحْتواها، وقَادِرَةً على توظيفِ مُكَوِّنَاتِهَا في تَحْريكِ الوَاقِعِ الاجْتماعيّ، وتَطْويرِ الرُّؤى العامّة للارْتِقَاءِ بالمَسْؤوليّة والفِكْرِ والتّفاعُلِ إلى مُسْتوى الإنْتاج والإبْداع والتَّوافُقِ مع «رُوحِ العَصْر» وتحدّياته، وتَأْسيسِ الذِّهْنيّة القَادِرَةِ على التّقصّي الموضوعيّ للوَاقِعِ والمُشْكلات، والسَّعي الحثيث لإيجادِ الصِّيغ العِلْميّة والمُوَاصَفَاتِ المُنْضَبِطَةِ والإجْراءاتِ العمليّة للتّعامُلِ معها.

لقد آن الأوان لكي يكون «الفِكْرُ الأدبيُّ» فَاعِلاً على السّاحة في تَنْمية العُقُولِ والمدارك، وذلك ابْتِدَاءً من تَطْويرِ أدب «الخيال العِلْميّ» وتَأْصيلِه في «بِنْيَةِ الثّقافة العربيّة»، وهو «الأدبُ» الذي يتفاعلُ مع مُعْطيات العلوم، ويَسْتَشْرِفُ المُسْتَقْبَل، ويَسْتَقْطِبُ خيال النّاشِئَةِ ويُوَظِّفُ حماسهم؛ وانْتِهَاءً باسْتِنْهَاضِ الهِمَمِ لتَحْليلِ المُشْكلاتِ المُعَاصِرَةِ بطُرُقٍ عَقْلانيّةٍ وتَفْكيرٍ عِلْميٍّ، ولفَرْزِ عناصِر «الثّقافة» فَرْزاً دقيقاً يَسْتَشْعِرُ حقائقَ «الزَّمان» وتَبِعَاتِ «المكان»، ويَحْتَرِمُ القِيَمَ الحقيقيّةَ الثّابِتَةَ للأُمّة وما تَحْمِلُهُ من أمانةٍ

ورِسالةٍ وتطلُّعاتٍ، فيَتَّجِهُ «الأدب»، وفْق مقولة زكي نجيب محمود،: (نحو الحَقْلِ والمَصْنَعِ والشَّارِع، إنّه أدبٌ فيه رَائِحَةُ العَرَقِ وضَوْضَاءُ العمل)[٢٠].

٥-٤-٤- أ) نحو إرادةٍ مُجْتمعيّة:

نَخْلُصُ ممّا سَبَقَ إلى أنّ «الثَّقافة التّنْمَويّة» هي تلك «الثَّقافةُ» القَادِرَةُ على توفير «البَوْتَقَةِ الحيويّة» التي تتفاعلُ فيها مُخْتلف الأنْشطة الإنْسانيّة والمَعْرفيّة، وتتواصلُ شَتّى عناصِر الآداب والعلوم والتّقْنيات - في تَعَاضُدٍ وتَكَامُلٍ وتَوَازُنٍ - لإنْشَاءِ حياةٍ ثقافيّةٍ مُفْعَمَةٍ بالحيويّة والدّيناميكيّة لخِدْمَةِ الإنْسان في مُخْتلف مَنَاشِطِهِ الفِكْريّة ومُتطلَّباته الحياتيّة ودَوَافِعِهِ الرُّوحيّة ونَوَازِعِهِ الوِجْدانيّة، ولا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ ذلك دون توليد «إرادةٍ مُجْتمعيّةٍ» تَهْتَمُّ بالإعْمار، وتتفاعلُ مع «مُعْطيات العَصْر» بإيجابيّةٍ، فكما يقولُ زكي نجيب محمود فإنّ: (التَّغْيير الطّبيعيّ الوحيد هو ذلك الذي يَصْدُرُ عن اقْتناعٍ أو إيمانٍ حقيقيٍّ عند المُتَغيِّر، أو بعِبارةٍ أُخْرى، هو ذلك الذي يجيء عن «إرادة» الشّخْصِ أو الشَّعْبِ الذي يَتَغَيَّر)[٢٠].

وهكذا نجدُ أنّ المُتَطلَّبَ الرّئيسَ للتّغلُّبِ على «إشْكَاليّة التّنْمية»، هو تَأْمينُ تلك «الإرادة المُجْتمعيّة» التي تَسْعَى جَاهِدَةً نحو الأفْضل لتُحَقِّقَ «عمليّة التَّحْديث» التي وَصَفَهَا عمر الخطيب بأنّها: (العمليّة التي يَسْتطيعُ الإنْسان من خلالها السَّيْطَرَةَ المُتزايدة على بيئته)[٧٦]. وفي ذلك السِّياق تُفْلِحُ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» في توظيفِ القُدْرَاتِ والمَوَارِدِ والمَهَارَاتِ على مُخْتلف الأصْعِدَة، مُسْتَنْهِضَةً جُهُود كُلِّ الشّرائِح الاجْتماعيّة، للتّعامُلِ مع المُشْكلاتِ والقضايا المُعَاصِرَة بجِدِّيّةٍ عمليّةٍ ونزاهةٍ عِلْميّةٍ، فتَتَحَوَّلُ كُلُّ تلك الدِّراسات التي تَتَرَاكمُ في أرشيفات المؤتمرات والنّدوات، والتّوصيات التي تَتَمَخَّضُ عن كُلِّ تلك اللجان والاجْتماعات، من مُجَرَّدِ تَنْظيرٍ وحالات تأمُّلٍ، إلى وَاقِعٍ يَتَحَرَّكُ على الأرْض، ويُغَيِّرُ مَعَالِمَ الحياة، ويُطَوِّرُ حياة الأفْرَاد، ويَتَّجِهُ نحو المُسْتَقْبَلِ بتفاؤلٍ وثِقَة.

من أهمّ مَعَالِمِ الطّريق إلى «التّنْمية»، أو «النَّهْضَة» - سَمِّهَا ما شِئْتَ -، هو الإدْرَاكُ العميقُ بالمعايير المُرْتَبِطَةِ بـ«التّنْمية الشّامِلة» التي وَصَفَهَا علي خليفة الكواري بأنّها:

(تَبْدَأُ عندما تَتَبَلْـوَرُ «إرادةٌ مُجْتمعيّةٌ للتّنْمية»، وتَتَمَثَّلُ هذه «الإرادة المُجْتمعيّة» في وجود «إرادةٍ اجْتماعيّةٍ» قَادِرَةٍ على تَعْبِئَةِ طَلَبٍ مُجْتمعيٍّ فعّالٍ يُؤدِّي إلى إيجاد «الإرادة السِّياسيّة» المُلْتَزِمَةِ بـ«عمليّة التّنْمية»)[١١]. أمّا أبْرز ما يَنْبَغِي التَّنَبُّهُ له - عند الحديث عن «الثّقافة التّنْمَويّة» - فهو الإدْرَاكُ بأنّ الأمور لا تَتَحَقَّقُ بمُجَرَّدِ النَّوَايَا، ولا تَأْتِي جُمْلَةً وَاحِدَةً، ولكنّها «عمليّـاتٌ تَرَاكُمِيّـةٌ» يتلاقحُ بعْضُهـا مع بعْضٍ، وهي تَنْمُـو في أحْشَـاءِ التَّخْطيط العِلْميّ والتّقْويـم السّليم والآليّات العمليّة، فوفْق طَرْحِ زكي نجيب محمود: (المُسْتَقْبَلُ الذي نُريدُ أنْ نُبْدِعَـهُ خَلْقاً جديداً، بتَفْكيرٍ عِلْميٍّ سليم، ليـس شيئاً يَأْتِي بـ«الجُمْلَةِ» ولكنّه تَفْصيلاتٌ تَتَحَقَّـقُ بـ«القَطّاعِي»، برَغْم أنّ هذه الأجْزَاءَ المُتَفَرِّقَةَ تَتَكَامَلُ آخِرَ الأَمْرِ بعْضُها مع بعْضٍ في كِيانٍ عُضْويٍّ وَاحِد)[٢٠].

إذاً «الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» هي تلك التي تَسْتطيعُ أنْ تَدْفَعَ بالأفْرَادِ نحْو مفاهيم الإنْتاجيّة والمُشَارَكَة، وتُعَالِجُ - بحِكْمَةٍ وعزيمةٍ - ذلك الوَهَنَ الكَامِنَ في أعْمَاقِ مؤسّسات المُجْتمع الـذي جعلها غير قَادِرَةٍ على التّصدِّي للمُشْـكلات الحياتيّة واليوميّة؛ و«الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» هي تلك التي تَقْضِي على نَزْعَاتِ الاتّكَاليّةِ والاسْتِهْلاكِ ولَوْمِ الآخَرين ونظريّاتِ المُؤامرةِ ونَزْجسيّـةِ التّفْكيـرِ التي أَصْبَحَـتْ مَعَالِـمَ مُمَيِّزَةً لـ«الثّقافـة السّائِدَة» فـي «المُجْتمعات العربيّة»؛ و«الثّقافةُ التّنْمَويّةُ» - أيضاً - هي تلك التي تُصَحِّحُ عمليّاتِ التّفاعُلِ ومُنْطلقاتِ التّعامُـلِ مع «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة»، فلا تكـون كُلُّ مُعْطياتِ هذه الحركة مُجَرَّدَ آلاتٍ وأجْهِـزَةٍ وأدواتٍ ووسائِـل، بَلْ هي - كما أَكَّدْنَـا في أكْثر من مقام - فِكْـرٌ وثقافةٌ وانْتِمَاءٌ ومُمَارَسَـاتٌ تُقَلِّصُ من سَلْبيّاتِ مـا وَصَفَهَا محمد عابد الجابـريّ[٥٩] بأنّها: («الظّاهِرة العَامَّة» التي تُلَخِّصُ مُعْطياتِ التّخَلُّفِ في البلدان «النّامية»)، وهي: (انْفِصَالُ «العِلْمِ» عن «الثّقافة»: عَدَمَ انْدِمَاجِهِ في حياة المُجْتمع الماديّة والفِكْريّة والرُّوحيّة).

٥-٤-٤-ب) نحو رُؤيةٍ عمليّة:

إذاً قضيّـةُ الأُمّـة اليوم هي قضيّـةُ «ثقافـةٍ» ذات رُؤىً تَسْتَشْـرِفُ المُسْتَقْبَلَ وتُدْرِكُ تحدِّياتِـه، وتَتَوازَنُ مُكَوِّنَاتُهَـا لتَحْتَضِنَ الثّوابِتَ والقِيَمَ الرّاسِخَة، وتَرْعَـى التَّأَلُّقَ والإبْدَاعَ

في المجالات الإنْسانيّة والأدبيّة، وتُراهِنَ على جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤثِّراً وريادِيّاً في التّفاعُلاتِ الفِكْريّة السّائِدَة، وكما يقولُ أنيس صايغ: (تَبْقَى الرِّسَالَةُ الثّقافيّةُ عَرْجَاءَ إذا لم يَتَحَلّ دُعَاتُهَا بالأخْلاقيّات إلى جَانِبِ مضامين المَعْرِفَة)[١٨].

ما سَبَقَ - من تَحْليلٍ مَنْهَجيٍّ - يقودُ - بالضّرورة - إلى مُصْطلح «الثّقافة التّنْمَويّة» التي يُمْكِنُ تَعْريفُهَا بأنّها: (ثقافةٌ تَحْمِلُ «المُسْتَقْبَلَ» في عِظَامِهَا ونُخَاعِهَا وخلاياها وأنْسِجَتِهَا، فهي ثقافةٌ مُشَبَّعَةٌ بنَبْضِ العَصْر، ومُتَوَازِنَةٌ في مُحْتواها، ومُتَكَامِلَةٌ في مُقَوِّمَاتِهَا، ومُتَفَاعِلَةٌ مع الأطْيافِ الفِكْريّة المُهَيْمِنَة، ومُتَنَاغِمَةٌ مع طبيعةِ التَّحَدّيات، لتُصْبِحَ «الوَسَطَ» المُناسِبَ القَادِرَ على مُوَاجَهَةِ «إشْكَاليّةِ التّنْمية»، وإحْدَاثِ «النَّقْلَةِ النَّوْعيّة» اللّازِمَةِ في تَفْكيرِ الأفْرَادِ وتفاعُلاتِ الجماعات).

ولكن يُمْكِنُنَا السَّيْرُ على الطَّريق الإنْشائيّ - السَّرْديّ ذاته الذي تَسْلُكُهُ «الثّقافة العربيّة» لتَبْقَى الكلماتُ حِبْراً على وَرَقٍ، وتَبْقَى الصُّورةُ عامّةً وهُلاميّةً وفَضْفَاضَةً بمَنْأَىً عن التَّفْصيلِ والتّخْطيطِ والتّوجيه، وهذا هو ما اسْتَنْكَرَهُ زكي نجيب محمود وهو يَعْرِضُ للظّاهِرَةِ الوَصْفِيَّةِ في عُموميَّاتِهَا، والهَيْمَنَةِ اللفْظيّةِ في تَجَلِّيَاتِهَا، فيقول: (لو اسْتطعنا إبْراز الفَوَارِقِ المُمَيِّزَةِ للطُّفُولَةِ الحَقّ من الرُّجُولَةِ الحَقّ لكان لنا بذلك نفْسه مِقْياسٌ نُفَرِّقُ به بين الرُّؤيةِ السَّاذَجَةِ بفِطْرَتِهَا، والرُّؤيةِ النَّاضِجَةِ بعد تَحَضُّرٍ وتَهْذيبٍ، فما هي أوضح تلك الفَوَارِق ظُهُوراً؟. أوضحُها - في ظَنِّي - هو القُدْرَةُ على رُؤيةِ الشّيء أو المَوَاقِف بعد تَحَضُّرٍ وتَهْذيبٍ بتفْصيلاتِها التي يتشابكُ بعْضُها مع بعْضٍ كأنّها الخُيُوطُ في رُقْعَةٍ من النّسيج، فرُؤيةُ الشّيء أو المَوقِف بتَفْصيلاتِه هي الخُطْوَةُ الضّرورية الأولى التي يُمْكِنُ أنْ تَتْبعَهَا خُطْوَةُ القِياسات الكَميّة والضَّبْطِ العَدَديّ، وهذه بدَوْرِهَا هي طريقُنا الوحيدُ إلى صِياغَةِ مَعْرفتنا بذلك الشّيء أو المَوْقِف صِياغَةً عِلْميّةً، أمّا الرُّؤيةُ التي تَقِفُ من الأشْياء عند أسْطُحِهَا، لنُدْرِكَهَا في جُمْلَتِهَا لا بتَفْصيلاتِها الدّاخِلَةِ في تَقْويم كيانِها، فهي كالشّارِعِ المَسْدُودِ من أحد طَرَفَيْهِ فلا يَنْفُذُ منه السّائِرُ إلى بعيدٍ، ولا بُدَّ له أنْ يَرْتَدَّ إلى نفْسه حيث كان)[٢٠]. وهكذا نجدُ - بكُلِّ حَيْرَةٍ وأسىً - أنّ طَرْحَ زكي نجيب محمود في زمنه قبل أكْثر من نِصْف قَرْنٍ ما زال قَائِماً في زمننا، ويَبْقَى السُّؤال: (ما المَخْرَجُ من

نَفَـقِ «الرُّؤيةِ السَّاذَجَةِ» - بعُمُوميّاتِهَا وسَطْحِيّتِهَـا وإنْشَائيّاتِهَا - إلى «رُؤيةٍ نَاضِجَةٍ» تَدِبُّ على الأرْض دبيباً لتُشَخِّصَ نِقَاطَ الضَّعْف، وتُعَالِجَ مَكَامِنَ الخَلَل؟).

٥-٤-٥) على طريق «إسْتراتيجيّة الثّقافة التّنْمَويّة»:

ممّـا سَبَقَ يَتَّضِـحُ أنّ الحاجة مُتناميةٌ لوَضْـعِ أُسُس «إسْتراتيجيّـةٍ ثقافيّةٍ - تَنْمَويّةٍ» تَحْمِـلُ «الرُّؤية التّفْصيليّة النَّاضِجَة» لحركة «الفِكْرِ البشريّ المُعَاصِر»، وتَسْتَوْعِبُ حقيقة التّطوُّراتِ المُذْهِلَةِ في «الألْفيّة الثّالثة»؛ وكُلُّ هذا يَفْرِضُ - ابْتِدَاءً - «عموداً فِقْريّاً» تَتَمَحْورُ حوله «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» لكي تَنْتَفِضَ - بحيويّةٍ - مُحْدِثةً تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّة» على مُخْتلف الأصْعِـدَة، ودَافِعَةً للتّغيُّراتِ الجِذْريّةِ في القُـدْرَاتِ والمهاراتِ والمَوارِد، ولن يطول بَحْثُنَا بمُوجِـبِ طُرُوحَاتِنَا في هذا الكِتاب - في سِيَـاقِ «الثّقافة» و«التّنْمية» و«شُرُوطِ المُسْتَقْبَل» و«رُوحِ العَصْر» - لنَكْتَشِفَ أنّ ذلك «العمود الفِقْريّ» هو «مَنْظُومَةُ العلوم والتّقنية».

وهكـذا نجدُ أنّنا نَحْتَاجُ إلى «لُغَةٍ» تتفاعلُ مع ثقافتِنا لتُرَسِّخَ مفاهيمَ «الفِكْرِ العِلْميّ» وشُـرُوطَ «الحركـة التّقنيّة» ومُقْتضيـاتِ «التّنْمية الحديثـة»، وأَزْعُمُ هنا أنّ هـذه «اللّغَةَ» الحَاسِمَـةَ هي «الثَّقافةُ العِلْميّـةُ» ولا شيء سِواها؛ فهي - بمُحْتواهـا ومُقَوِّمَاتِهَا ووسائِلِهَا - القَادِرَةُ على توجيه طاقـات الأفْرَاد، وصِياغَةِ توجُّهاتِهم، وزَرْعِ الحماس والإنْتاجيّة في مُمَارَسَاتِهِـم، وعَقْلَنَةِ تَفْكيرِهـم، وتَرْسيخِ «الإرادة المُجْتمعيّة»، ووَضْـعِ «الرُّؤية العمليّة»، والتّعامُـلِ مع العَصْـرِ بمُسْتَجِدَّاتِهِ وتحدِّياتِـهِ وضَوابِطِه؛ وهي الكفيلةُ بتَحْقيـقِ مَجْمُوعَةٍ مـن المُقَوِّمَـاتِ يَطْرَحُهَا علي علي حبيش ومنْها: (أنْ يكون للعِلْـمِ والتِّكْنولوجيا مَكَانَةٌ في المُجْتمع وتَأْييدٌ شَعْبيٌّ من الجماهير)[٣٩].

وممّـا يَدْعَمُ تلك الرُّؤيـة أنّ أهمّ أهْـداف «الثَّقافة التّنْمَويّة» هـو التَّخَلُّصُ من تلك المُنَاكَفَـاتِ الفِكْريّـة، والزّوائِـدِ الثّقافيّة، والشُّحُـومِ اللفْظيّة، التي كانـتْ - وما زالتْ - تُهَيْمِـنُ على «المَشْهَدِ الثَّقافيّ العربـيّ»، وأدَّتْ بطبيعتِها إلى إبْعَادِ «العِلْم» عن التّفاعُلات الفِكْريّة والثّقافيّة، وإهْمَالِ دَوْرِهِ في بِنَاءِ العَقْلِ وتَرْقيةِ المُمَارَسَات، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ محمد

عابـد الجابـريّ[1] عندما يقولُ إنّ «العِلْمَ» لم يكـنْ له: (دَوْرٌ يُذْكَرُ فـي المعارك الفِكْريّة والأيديولوجيّة وبالتّالي لم يُساهِمْ في تَغْذِيَةِ «العَقْلِ العربيّ» ولا في تَجْدِيدِ قَوَالِبِهِ وفَحْصِ قَبْلِيَّاتِـهِ ومُسْبَقَاتِـه، فبَقِيَ «الزَّمَانُ الثَّقافيُّ العربيُّ» هُوَ هُوَ، بَقِـيَ مُمْتَدّاً على بِسَاطٍ وَاحِدٍ مـن نهاية عَصْرِ التَّدْوين إلـى بداية عَصْرِ ما بعْد ابن خلدون إلى قِيَـامِ النّهْضَةِ العربيّة الحديثة...إلـى أيامِنا هـذه). إنّها - كما يراها محمد عابد الجابـريّ[1] - (أَزْمَةُ الفِكْرِ العربـيّ المُعَاصِـر)، وهـي (أَزْمَـةٌ بُنْيويّـةٌ: أَزْمَةُ عَقْـل)، ويَصِفُهَـا بأنّها: (أَزْمَـةُ ثقافةٍ ارْتَبَطَـتْ منذ بدايـة تَشَكُّلِهَا بالسِّياسة، فكانتْ «السِّياسةُ» فيهـا، لا «العِلْمُ»، هي العُنْصُرُ المُحَـرِّكُ ممّا جعلهـا تَخْضَعُ باسْتِمْـرَارٍ لتَقَلُّبَاتِ «السِّياسـة» وتَتَأَثَّرُ بنجاحِهـا وإخْفاقِها وتَنْحَطُّ بانْحطاطِها).

خُلاصَـةُ القَول، إنّ أيَّ «اسْتراتيجيّةٍ للثَّقافة» تَطْمَحُ إلى تَغْييرِ الوَاقِعِ العربيّ، وإثْرَاءِ مُعْطياتِـه، وتَطْويرِ فِكْرِه، تَحْتَاجُ - أوّل ما تَحْتاج - إلى مُعْطياتِ «الحركة العِلْميّة التقنيّة» بثقافتِهـا وفِكْرِهَا وفلْسفتِها وقِيَمِهَـا ومُقْتضياتِها السُّلُوكيّة وضَوابِطِهَـا المَعْرفيّة، ويُؤكِّدُ محمـد عابد الجابريّ[59] هـذا الحال بقوله: (إنّ أَبْلَـغَ تَعْريفٍ لـ«التّنْميـة» قَرَأْتُهُ وشَدَّنِي إليـه هو ذلك الذي يُعَرِّفُهَا بأنّهـا «العِلْمُ حين يُصْبِحُ ثقافة»)، ويُواصِلُ ليقول: (إذا كانتْ «التّنْميةُ» هي «العِلْمُ حين يُصْبِحُ ثقافة»، فإنّ «التَّخَلُّفَ» سيكون هو «العِلْمُ حين يَنْفَصِلُ عن الثَّقافة» أو هو «الثَّقافةُ حين لا يُؤسِّسُهَا العِلْم»)، ويَخْلُصُ الجابريّ إلى القول: (إنّه ما لم نَعْمَلْ على دَمْجِ «العِلْمِ» في ثقافتِنا ورَبْطِ ثقافتِنا بـ«العِلْمِ» فإنّنا لن نَخْطُوَ الخُطْوَةَ الحقيقيّةَ الأولى نحو «التّنْمية»). وهكذا يَتَجَلَّى الدَّوْرُ الرّياديُّ لـ «الثَّقافة العِلْميّة»، وضَرورَةُ أنْ تكون هـذه «الثَّقافة»، بكُلِّ مضامينِها ومُحَدِّدَاتِهَـا، مِحْوراً رئيساً في تَرْكيبةِ «الثَّقافة التّنْمَويّة»، ورُكْنـاً أساساً لإسْتراتيجيّتِها. ومَرّةً أُخْرَى تَبْرُزُ، عند الحديث عن «إسْتراتيجيّة الثَّقافة»، أهميّـةُ «مَفْهُومِ توجيه الثَّقافة»، الذي تَطَرَّقْنَا إليه في الفَصْلِ الثّاني، ممّا يَفْرِضُ ضرورة تَحْديدِ سُلَّمِ الأولويّات، وتَشْخيصِ نَوْعِ «الاسْتِجَابَةِ» لطبيعة «التَّحَدِّيات» المُعَاصِرَة.

٥-٤-٦) البَحْثُ عن «المُثقّف التّنْمَويّ»:

تَدْفَعُ الأحْـداثُ المُعَاصِرَةُ والتّطَوُّرَاتُ العَوْلَميّةُ - بشِدَّةٍ - في اتّجَاهِ تَصْنيفٍ جديدٍ لـ«المُثقَّـف» أَطْلَقنَا عليه اسْم «المُثقّف التّنْمَويّ» (انْظر: الفَصْل الثّاني)، وكما هو الحال مـع «الثّقافـة العربيّة» التي تَبْحَثُ دوماً عن رُمُوزٍ رياديّـةٍ، وأدْوارٍ مِثاليّةٍ، وقِياداتٍ مُلْهَمَةٍ، فإنّ البَحْثَ جَارٍ عن «المُثقّفِ» الذي يُؤدِّي دَوْراً طليعيّاً في دَفْعِ المُجْتمع على طريق تَحْقيقِ كُلِّ التّطلُّعات السّياسيّة والفِكْريّة والإبْداعيّة والنّهْضَويّة. وفي ضوء ذلك «الهَوَسِ العربيّ» بالزّعَامَـاتِ المُلْهَمَـةِ والقِياداتِ التّاريخيّـةِ التي جَرَّتْ الأُمّةَ إلى كَـوَارِث، فإنّ التّأمُّلَ في خصائِصـ «المُثقَّفِ» الـلازِمِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَـة النَّوْعيّة» أَمْرٌ جديـرٌ بالاهْتمام، ولكنّنا لا نَتَحَدَّثُ هنا عن «المُثقّفِ الأوْحَد» أو «المُفكِّرِ الذي لا يُشَقُّ له غُبَار»، بَلْ عن «ثقافةٍ» تَشِيعُ فـي المُجْتمع لتُحَفِّـزَ الطّاقات، وتُوَجِّهَ الإرادات، وتَسْتَوْعِـبَ التّحدّيات، لتتحوّلَ إلى «فِكْرٍ مُجْتمعـيٍّ» يتفاعلُ بإيجابيّـةٍ مع عَصْرِه، ويَصْنَعُ بثقةٍ مُسْتَقْبَـلَ أجْياله، ويَرْفُضُ - أوّل ما يَرْفُض - ذلك «العَبَثَ التّاريخيّ» في حياة الأُمّة وهي تَتَنَفَّسُ أوهام «ثقافة الفَرْدِ الأوْحَد»!.

إنّ «الإشْكَاليّةَ» تَكْمُنُ في أنّ «المُثقَّفَ العربيّ» فَشِلَ عبْر مراحِل مُتَعَدِّدَةٍ، وعلى مدى قَرْنَيْـن، أنْ يُحَقِّـقَ شيئاً يُذْكَرُ على طريـق «التّطلُّعات النّهْضَويّة»؛ وأمّـا طبيعة «التَّحَدِّي» وجوهــر «الأَزْمَـةِ» فيَكْمُنَــان - دون جِدَالٍ - في ذلــك الحُلْمِ الـذي أَسْمَـاهُ مُثقّفو القَرْن التّاسـع عشر «النّهْضَة»، وأَطْلَقَ عليه المُثقَّفون المُعاصِـرون اسْم «التّنْمية»، وعند التَّأَمُّلِ الدّقيق لتجارِب أولئك وهؤلاء نَسْتطيعُ أنْ نُشَخِّصَ سبب «الكُسَاحِ الثَّقافيّ» في الحَالَتَيْن؛ فـ«الثَّقافة» بَقِيَـتْ بِمَنْأَىً عن «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بضَرورَاتِهَـا الفِكْريّة والثّقافيّة والاجْتماعيّة والإجْرائيّـة، وأمّا خِطَابُ «المُثقَّفِ العربيّ» فقد كان - وما يزال - خِطاباً مَهْوُوساً بذاتِه، ومُغْرِقـاً فـي نَرْجسيّتِه، ومُهْتَرِئـاً في تَكْوينِـه، ومُسْتَنْسِخَـاً لمُعْطياتِه، ومُنْبهِـراً بالآخَر، أو مُنْغَلِقـاً علـى ذاتِه، ممّا حدا بمحمـد عابد الجابريّ إلى أنْ يُقَـرِّر: (إنّ وَاقِعَنَا الثَّقافيّ الرّاهِنَ لا يُبَشِّرُ بأيِّ مَشْرُوعٍ مُسْتَقْبَلِيّ)[1].

وهكـذا فـي خِضَـمّ الجَلَبَةِ حـول تَصْنيفـات «المُثقّف العربـيّ»، ومنهـا مُصْطَلَحَا «المُثقّـفُ التّنْويـريُّ» و«المُثقّـفُ الحَدَاثـيُّ» بدَلالاتِهِمَـا المَغْمُوسَـةِ في «الفِكْـرِ الغَرْبيّ» وتجارِبـه، تَـمَّ إغْفَالُ التّصْنيف الأهمّ، وهو «المُثقَّفُ التّنْمَويُّ»، ممّـا يُوجِبُ ضَرورَةَ بَلْوَرَةِ «دَوْرٍ تَنْمَـويٍّ» لـ«المُثقَّفِ» يَنْأَى به عـن التّنْظيرِ الغَائِم، والشِّعَـاراتِ الهَائِمَة، والانْفِعالاتِ المُلْتَهِبَة، والجَدَلِ العَبَثيّ، والتّقوقُعِ تارةً في أُطُرٍ فِكْريّةٍ تَقْليديّةٍ، وتارةً أُخْرَى في الإصْرَارِ علـى اسْتِمَاتَةٍ سَاذَجَةٍ لفَرْضِ «حَدَاثَةٍ كلاميّةٍ»، أو «ليبراليّةٍ مَأْزُومَـةٍ»، لا يَفْقَهُ أيٌّ منْهما أبْجديّاتِ «التّنْمية»، ويتصادمُ مع قِيَمِ المُجْتمع وتفاعُلاتِه.

إنّ هـذا «التّصْنيـفَ الثّقافـيَّ» الحَاسِـمَ لـ«الحَـرَاكِ التّنْمَويّ»، المُتَمَثِّـلَ بمُصْطلح «المُثقّفِ التّنْمَويّ» يَفْرِضُ ضرورةَ «تَأْهيلِ المُثقّفِ تَنْمَويّاً» ليكون صَاحِبَ «مَشْرُوعٍ تَنْمَويٍّ»، ورُؤيةٍ عمليّةٍ، قَادِراً على الإسْهَامِ في دَفْعِ حركة مُجْتمعِه في اتِّجَاهِ «سَهْمِ الزَّمن»، ومُؤثِّراً في الأحْـدَاثِ بإيجابيّـةٍ وكفـاءَةٍ، ومُسْتَوْعِباً لثَوابـتِ مُجْتمعِه، ومُـدْرِكاً لحقائِق عَصْرِه، وحريصـاً علـى تَمَاسُكِ وطنِه، ولتَنْتَقِلَ مثل تلـك «الرُّؤى التَّنْمَويّة» الحيويّـة، عبْر أمْوَاجِ التّواصُلِ والتّفاعُل، إلى المُواطِن – أيّاً كان مَوْقِعُهُ ودَوْرُه –.

يُـرْوَى عن ألبرت آينشتاين قولـه: (إنّ أحد تَعْريفات «الجُنُون» أنْ تُكَرِّرَ عمل الشّيء نفْسـه مَرَّةً تِلْـوَ الأُخْرى مُتَوَقِّعاً أنْ تَحْصُلَ علـى نتائِج مُخْتلفة)، وبالتَّأَمُّـلِ الدّقيق للوَاقِعِ العربيّ الذي تَمْتَلِئُ أجْواءه بأعاصِيرِ الإحْباط، وتَفْتِكُ بمُعْطياتِه جراثيمُ العَجْز، وتَسْتَقْطِبُ شبابـه ومُثقّفيه حالاتُ «الانْبِهَـارِ» و«الانْكِفَاءِ» و«الاجْتِرَارِ» و«التَّهَـوُّرِ» و«النّرْجَسِيّة»، فإنّه لا بُـدَّ لنا عن البَحْثِ عن «مُثقَّـفٍ» يَخْرُجُ عن كُلِّ تلك «التَّصْنيفات» التـي جَرَّبَنَاهَا مِرَاراً وتَكْرَاراً، وما زَادَتْنَا إلاّ خَسَاراً. إنّ التَّحدِّي الحقيقيّ لـ«الثَّقافة العربيّة» هو ما وَصَفَهُ عبد الله عبـد الدائم بقوله: (التَّحدِّي الأكْبر الذي يُواجِـهُ المُثقّفين العرب أنْ يكونوا مُثقَّفين حَقّـاً أو لا يكونـوا شيئاً. أنْ يكونوا مع مُجْتمعِهم ومن أجْل مُجْتمعِهم)[١٨]. ومن هنا يَنْبَغِي – فـي رأْيي[٧٩] – أنْ يَبْـرُزَ تَصْنيفٌ جديدٌ لـ«المُثقّفِ» وهو «المُثقّـفُ التّنْمَويُّ»، وتكون له الأولويّـةُ على غيره مـن التّصْنيفات؛ فالمطلوبُ «فِكْرٌ تَنْمَـويٌّ» يَسْتَثْمِرُ الغَضَبَ والإحْبَاطَ والتَّذَمُّـرَ لـدى المُجْتمـع، ويَسْتَقْطِبُ حماسَ الجُمْهـور، ويَسْتَنْهِضُ هِمَمَهُـمْ وطاقاتِهم،

ويَتَوَجَّـهُ - في رُؤيةٍ فَاحِصَةٍ وخُطَطٍ مُنْضَبِطَـةٍ ومعايير موضوعيّةٍ - نحو العِمْرَانِ والبِنَـاءِ والإنْتاجيّة؛ فذلك «المَنْظُورُ التّنْمَويُّ» هو وَحْدُهُ - بعد الله عزّ وجلَّ - الكفيلُ بإنْقَاذِ الأُمّة مـن هـذا النَّفَقِ المُظْلِمِ الطّويل الذي لا نكادُ نرى له نِهايةً؛ فسُنَنُ الله لا تُحَابِي أحداً، ولا تَنْسَاقُ لعَوَاطِفِ العَنْتَرِيِّين والمُتَكَلِّمين ومُثقَّفِي «الجَدَلِ العَبَثَيّ» و«الدَّجَلِ التَّلْفيقيّ».

ليس المَطْلُـوبُ أنْ يكون «المُثقَّـفُ التّنْمَويُّ» شَمْعَـةً تَحْرِقُ نفْسَهـا لتُضِيءَ الطّريق للآخَرين، وليس عليه أنْ يَرْكَبَ المَرْكَبَ الصّعْبَ لتأْسيسِ دَوْرٍ بُطُوليٍّ يَجْعَلُهُ حديث الأوَّلِين والآخِريـن، أو أنْ يُسَجِّـلَ مَوَاقِفَ تاريخيّةً عبْر تَضْحياتٍ لا يَقْـدِرُ عليها إلاّ أولو العَزْمِ من الرِّجـال، أو أنْ يَتَبَنَّى مَوَاقِفَ شَاذّةً من باب «خَالِـفْ تُعْرَفْ»؛ ولكنّه - بكُلّ بساطةٍ - ذلك «المُثقّفُ» الذي يُدْرِكُ أنّ هنـاك طريقَتَيْنِ لنَشْرِ الضَّوْءِ؛ فإنْ لم يكنْ شَمْعَةً تَحْتَرِقُ لتُضِيءَ الطّريـق، فعليه أنْ يكون مِرآةً تَعْكِسُ الضَّوْءَ وتَنْشُـرُهُ في الآفاق، أو - على أقلّ تقْديرٍ - لا يكـون حَاجِزاً مُعْتِماً يَمْنَعُ انْعِكَاسَ الضَّوْءِ أو نَفَاذَه، وذلـك أضْعَفُ الإيمان. وأمّا «الضَّوْءُ» الـذي تَحْتَاجُهُ الأُمّـة، فهو بالتّأْكيد ليس ذلك الإسْفاف الذي يَجْثِـمُ على «الوَاقِعِ الثقافيّ العربـيّ» عبْر اسْتِفْـزَازِ المُجْتمع، وإثَارَةِ الغرائـز، وتَهْييجِ الانْفِعـالات، وترْسيخِ «الجَدَلِ الأَرْعَنِ» حول قضايا لا تَنْفَعُ المُواطِنَ في بَحْثِهِ عن حياةٍ كريمةٍ تَسْتَقْطِبُ قُدْرَاتِهِ الفَاعِلَة، وتَحْتَضِنُهُ في «مَسِيرَةٍ تَنْمَويّةٍ» تَمُرُّ به على ينابيع تُرْوِي عَطَشَ الظّمآن في بِيئَاتِ «الجَفَافِ المَعْرِفيّ» و«العَجْزِ العِلْميّ» والإحْبَاطِ المُتَفاقِم.

وأمّا المُحْزِنُ في الأَمْرِ أنْ ليس في هذه السِّياقات من جديدٍ فقد طَرَحَهَا زكي نجيب محمود - قبْل ما يَرْبُو على نِصْف قَرْنٍ - وهو يَتَأَمَّلُ حال «المُثقّفين العرب» فيقول: (لقد قُلْـتُ لأحدهـم ذات يـوم، وكُنْتُ على صِلَةٍ بـه تُجيزُ هذا القَـوْل، قُلْتُ له: تُرَى لـو جَمَعْنَا كلامـك كُلّه الذي ظللتَ تُمْسِي به وتُصْبِحُ عاماً بعد عامٍ فكَمْ رغيفاً من الخبْز يَخْرُجُ منه للجائعيـن؟، كَـمْ ثوباً نَنْسِجُهُ منه لمن يَنْقُصُهُمْ الكِسَاءُ؟، كَـمْ مِتْراً من الطّريق نَرْصُفُهُ، وكَـمْ جِداراً نَبْنِيـه؟. أليستْ هي يا صاحبـي طَواحين تَمْلأُ أوعيتُها هَـواءً فيَخْرُجُ لنا من عيونِهـا هَواءٌ، ويظـلُّ الجَائِعُ في حاجةٍ إلى الرَّغيف، ويظلُّ العـاري في حاجةٍ إلى الثَّوْب، ويظلُّ الطّريقُ المُتَهَدِّمُ يَنْتَظِرُ من يَرْصُفُهُ، والجِدَارُ من يَبْنيه؟)[٢٠].

٥-٥) نحْو المُصَالَحَةِ مع العلوم والتّقنية:

إنّ غِيَـابَ «البُعْـدِ العِلْميّ» عن «بِنْيَـةِ الثّقافة العربيّة» المُعَاصِـرَةِ جعلها غريبةً عن عَصْرِهَـا، وبعيدةً عـن تفاعُـلاتِ وَاقِعِهَا ومُتطلّبـاتِ مُسْتَقْبَلِهَـا؛ فالاتّصَـالُ بينها وبين «العلوم» هو اتّصَالٌ سَطْحِيٌّ هزيلٌ يَعْتَمِدُ على الشَّكْلياتِ وحُبِّ الاقْتِنَاءِ والاسْتِهْلاك، ولهذا فَقَدَ «الفِكْرُ التّنْمَويّ» - في المُجْتمعات العربيّة - الصِّلَةَ المُباشِرَةَ بـ«الوَسَطِ الاجْتماعيّ»، وأَصْبَحَ تَأْثيرُه مَحْدوداً وهَامِشيّاً في حركة الحياة وديناميّتها، ويَذْهَبُ مالك بن نبيّ[٢٨] في وَصْفِ وَاقِعِ «الحال الثّقافيّ» إلى الاسْتِشْهَادِ بالوَصْفِ النّبويّ الوَارِد في قَوْلِ المُصْطَفَى - صلّى الله عليه وسلّم -: «**مَثَلُ ما بعثني الله عزَّ وجلَّ به من العِلْم والهُدَى كمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصاب أَرْضاً فكانتْ منها بُقْعَةٌ قَبِلَتْ المَاءَ فأَنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانتْ منها بُقْعَةٌ أَمْسَكَتْ المَاءَ فنَفَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ به النّاسَ فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وكانتْ منها طائفةٌ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كَلأً**». ويرى مالك بن نبيّ أنّ: (هذا النَّصّ تَدَرَّجَ من أَعْلى للأَدْنى في تَصْوير «عَلاقَةِ الفَرْدِ والمُجْتمع» بـ«العِلْم»، أَيْ بالأَفْكَارِ والأَشْياء. وكأنّ النَّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - أراد من هذا التّدرُّج ذي الدَّرَجَاتِ الثّلاث أنْ يَرْمُزَ إلى عُصُورٍ ثلاثةٍ يَمُرُّ بها المُجْتمع، يَبْدَأُ تاريخه بمَرْحلةٍ يَحْدُثُ فيها تَقبُّلُ الأَفْكَارِ وإبْداعُهَـا وتَمَثُّلُهَا، تليها مَرْحلةٌ تَبْلُغُ فيها الأَفْكَارُ إلـى مُجْتمعاتٍ أُخْرى، ثم تَعْقُبُ مَرْحلةٌ يَتَجَمّدُ فيها عَالَمُ الأَفْكَارِ فيُصْبِحُ ليستْ لديه أَدْنى فَاعِليّةٍ اجْتماعيّة).

فـي ضوء ذلك التَّدَرُّجِ في طبيعة العَلاقَةِ بيـن «العِلْم والمُجْتمع» نَسْتطيعُ أنْ نَتَعَرَّفَ علـى وَاقِعِ «الثّقافة العربيّـة» اليوم، لنجد أنّه حالٌ يُشْبِهُ المَرْحلة الثّالثة من ذلك الوَصْفِ النَّبويّ فهي في الوَاقِعِ «لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كلأً» فيما يَخُصُّ مُعْطيات «العلوم الحديثة» و«حركـة التّقْنية المُعَاصِرَة»؛ وهكـذا تَنْتَصِبُ «إشْكَاليّةُ التّنْميـة» كوَاقِعٍ شَاهِدٍ على حالة غِيَابِ «الثّقافة التّنْمَويّـة»، وكمُؤشِّرٍ إلى هَشَاشَةِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة الثّقافيّة» التي لا تَسْتطيعُ أنْ تَسْنُدَ «الحركة العِلْميّة»، وتَمْتَصَّ عطاءاتها، وتُنْبِتَ ثِمَارَهَا.

أمّـا بدهيّاتُ العَصْرِ فإنّها تُؤكّدُ بأنّ المَدْخَلَ إلى تَحْقيـقِ «التَّنْمية» وبَعْثِ «النّهْضَة» يَتَمَحْـوَرُ حول «المِفْتَـاحِ الرّئيس»، وهو «مِفْتَاحُ العلوم والتّقْنية»، فهو - بكُلِّ بساطةٍ - يَفْتَحُ بـاب الآفـاق المُمْتَدَّةِ إلى عَوالِمِ القُـوّةِ والرَّفَاهِ والإنْجاز، ويقودُ إلى رِحَـابِ تَعْظيمِ مَوارِد الأوطـان وتَفْعيلِ قُدْرَاتِهَا وتَنْشيطِ طاقاتِها. ولذا فإنّ مِثْلَ هذه القضيّة جديرةٌ بأنْ تُصْبِحَ هَاجِسـاً يوميّـاً في تفاعُـلاتِ الأُمّة لأنّهـا - دون مُبَالَغَـةٍ - هي «القضيَّـةُ الأَهَمُّ»، فهي - بحَـقٍّ - «الطَّريقُ إلى النّهْضَة»، و«المَدْخَلُ إلـى التَّنْمية»، ممّا يُوجِبُ السُّؤال التّالي: (أين طُرُوحَاتُنَا وإعْلامُنَا وتَعْليمُنَا وخِطَابُنَا الدَّعَويّ والدِّينيّ وإستراتيجيّاتُنا الثّقافيّة وجُهُودُنَا الفِكْريّـة من حالة «الاسْتِنْفَارِ العَامّ» اللازِمَـةِ لتَأْصيلِ هذه «القضيّة المصيريّة» وتَفْعيلِها في الفِكْرِ والحياة والمُجْتمع؟).

إنّنـي لا أَزْعُـمُ فقط بأنّ كُلَّ ذلك فـي وادٍ و«مَنْظُومَة العلوم والتّقْنيـة» في وادٍ آخَر، ولكنّـي أُضِيفُ لأقول إنّ هناك تَوَجُّساً وجَفَاءً وانْتِقَاصاً مـن قَدْرِ هذه «المَنْظُومَة»، وذلك بالرّغْـم ممّا نَلْمَسُهُ من إجْماعٍ مُنْعَقِدٍ بين سياسيّـي ومُفكّري ومُثقّفي الدُّول النّامية على أنّ «طريـق النّجاة» مـن «حالة التَّخَلُّفِ والضَّعْف» يَكْمُنُ في «الأُفُـقِ العِلْميّ- التّقنيّ». إنّي أَزْعُـمُ أنّ ثقافتنا وقِيَمَنَا السّائِدَةَ وتعامُلاتِنَا الفِكْريّـة والاجْتماعيّة والإعْلاميّة تُعَانِي من ظِلالٍ كثيفةٍ من التَّوَجُّسِ والجَفَـاءِ والرِّيبة، وأحياناً الانْتِقَاصِ والتَّحَامُلِ والاحْتِقَار، لقِيَم «مَنْظُومَـةِ العلـوم والتّقْنية» وشُرُوطِهَا؛ وإنّي أَزْعُمُ - أيضاً - أنّ هناك دَوْراً غَائِباً أو مُغَيَّبَاً - في تفاعُلاتنا الحياتيّة - لـ«الثّقافة التّنْمَويّة» التي تَحْتَلُّ فيها «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» المَرْكَـزَ القياديّ ممّا يُعَمِّقُ من «الجَفْوَةِ» و«الفَجْـوَةِ» المُنْتَصِبَتَيْن في حياتنا اليوميّة بين مُتطلَّبـات الحيـاة المُعَاصِـرَةِ وتحدّياتِها من ناحيةٍ، وبيـن «الخِطَابِ الثّقافـيّ» بمُخْتلف تَجَلِّياتِـهِ وإسْهَامَاتِـهِ ورُمُوزِهِ من ناحيةٍ أُخْرى. ولذا فإنّ التَّحـرُّكات المَدْروسَة، والخُطَطَ الوَاضِحَـة، والتَّعْبِئَةَ الصّادِقَة، نحو «المُصَالَحَةِ مع العلوم والتّقنية» تُصْبِحُ ضرورةً مَاسَّةً لاسْتِيعـابِ عَنَاصِرِ «مَنْظُومَةِ العلـوم والتّقْنية»، والتّفاعُلِ الإيجابيّ مـع مُقَوِّمَاتِهَا مَعْرفيّاً وثقافيّاً ومُجْتمعيّاً وسياسيّاً وإنْتاجيّاً وإعْلاميّاً.

٥-٥-١) العَدَاءُ الخَفِيّ:

إنّ اسْتِيعاب مُقَوِّمَاتِ «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» تَتَطَلّبُ - بدايةً - التّغَلُّبَ على ما أُسَمِّيه[٨٠] «العَدَاء الخَفِيّ» للمَنْظُومةِ الذي يَتَجَلَّى في عِدَّةِ مظاهِر، منْها: تلك «الجَفْوَة الفِكْرِيّة والثّقافيّة والنَّفْسيّة» المَلْمُوسَة على مُسْتوياتٍ عِدّةٍ وفي سِياقاتٍ مُخْتلفة، ممّا يَجْعَلُنَا في أشدِّ الحاجة - أوّلاً - إلى بَذْلِ جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ نحو إجْراء «مُصَالَحَةٍ مع العلوم والتّقنية»؛ فمن المُحْزِنِ أنْ نَصْطَدِمَ يوميّاً بعَيِّنَاتٍ من مَوَاقِف عديدةٍ مُتَكَرِّرَةٍ - على الأصْعِدَةِ التّعْليميّة والتّربويّة والثّقافيّة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة -التي تَحْمِلُ في مضامينِها تَوجُّساً أو انْتِقَاصاً أو اسْتِعْلاءً أو جَفَاءً أو سُوءَ فَهْمٍ لهذه «المَنْظُومَة». إنّ الأمْثِلَةَ كثيرةٌ على هذا، وليس المقام - هنا - مقام حَصْرٍ بقَدْرِ ما هو مُحاولةٌ للتّعَرُّفِ على نُظُمِ «التَّفْكير المُهَيْمِنَة»، وعناصِر «الثَّقافة السَّائِدَة»، التي تعوقُ مسيرة «حركة العلوم والتّقْنية» في «المُجْتمعات العربيّة»، والحالُ هنا شبيهٌ بالحال الذي تَطَرَّقَ إليه تشارلز سنو عندما وَصَفَ حالة «عدم فَهْمِ العلوم» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» في الخمسينات من القَرْن الماضي بأنّها: (تَمْنَحُ - بشَكْلٍ أَعْمق ممّا نتوقَّع - نَكْهَةً غير عِلْميّةٍ للثَّقافة التّقْليديّة بِرُمَّتِهَا، وتلك النَّكْهَةُ غير العِلْميّة تَتَحَوَّلُ غالِباً - وبشَكْلٍ أَكْبر ممّا نَعْتَرِفُ به - إلى مَوْقِفٍ مُضَادٍّ للعلوم)[٣٢].

إنّ مِثْل هذا الحال يُفْقِدُ المُجْتمع ما يَحْتَاجُهُ من طاقةٍ وتَعْبئةٍ واسْتِنْفَارٍ لمُواجَهَةِ تحدّيات عَصْرِه، وما علينا إلاّ أنْ نَتَذَكَّرَ هذه الرُّؤى عندما نَقِفُ أمام طُرُوحاتٍ وقضايا تَعُجُّ بها - بين الحين والآخَر - وسائِلُنا الإعْلاميّة حيث تُعَاوِدُ في كُلِّ مَرَّةٍ اجْتِرَارَ السِّجَالاتِ نفْسها، والرِّيبةِ ذاتها، والمُمَانَعَةِ بعينها، بينما تَنْطَلِقُ مسيرةُ «العلوم والتّقْنية» في «عَالَمِ الكِبَار» من إنْجازٍ إلى إنْجازٍ ليَجْمَعُوا المَجْدَ من أطْرَافِه. وأمّا الطَّريفُ في الأَمْرِ فهو أنّ «المُمَانَعَةَ» عندنا هي فيما يَتَعَلَّقُ باسْتِخْدَامِ «المَنْهَجِ العِلْميّ» والتّجارِب والسُّنَنِ في تَفْكيرِنا وتَحْليلِنا وتَعْليلِنا، و«المُقَاوَمَةَ» عنْدنا هي ضِدُّ التَّهْيئَةِ الجَادّةِ لمُتطلَّباتِ العلوم في إسْتراتيجيّاتِنا وبرامِجِنا؛ ولكنّنا لا نُعانِي أيَّ مُمَانَعَةٍ أو مُقَاوَمَةٍ أو تَوَجُّسٍ عندما

يَتَعَلَّـقُ الأَمْرُ بـ«الجَانِبِ الاسْتِهْلاكـيّ»، ففي ذلك تَفَوَّقْنَا حتّى على أَرْبَابِ «العلوم والتّقْنية» ومُنْتِجيْ أدواتِها وفِكْرِها!.

يَبْرُزُ أحد أَوْجُهِ هذا «العَدَاء الخَفِيّ» في مَقُولَةٍ يُدَنْدِنُ حولها بعض المُثقّفين العرب – بيـن الفَينـة والفَينة – في نَعْتِهِمْ «العلوم والتّقْنية» بأنّها مُجَرَّدُ إنْتاجٍ تَطْبيقيٍّ، ومهاراتٍ تَجْريبيّـةٍ، ووسائِـل عمليّةٍ، لا يُمْكِـنُ اعْتبارُها أساسـاً حيويّاً لفِكْرِ الأُمّة؛ ففـي رأيهم أنّ «العلوم الإنْسانيّة» هي الأساس والأَصْل، وهي المَدْخَلُ الحقيقيُّ للرُّقيّ الفِكْريّ. لقد غاب عنهـم أنّهم بتلك المَقُولَةِ السّطْحيّة لا يَغْمِطُون فقط الحقيقة البَارِزَةَ للعِيان لدَوْرِ «الفِكْر العِلْميّ» الرّياديّ في حياة الأُمم وتَأْثيراته العميقة في تَشْكيلِ أَنْمَاطِ «الفِكْرِ المُعَاصِر»، ولا يُبْرِزُون مدى جَهْلِهِمْ بإيقاعـاتِ «الحياة المُعَاصِرَة» وطبيعةِ تحدّياتِها، ولكنّهم – أيضاً – يُعَمِّقُون الهُوّةَ مع هذا الفِكْرِ الحيويّ المَسْؤول عن أكْبر «النَّقْلات النَّوْعيّة» في حياة البشر، ويَجْنُـون على مُسْتَقْبَلِ الأُمّـة، ويُثْبِتُون – من جديدٍ – أنّ ثقافتنا هي «ثقافةٌ أدبيّةٌ» مَحْضَةٌ تعيشُ على الانْفِعالاتِ والوِجْدانيّاتِ والانْطِباعاتِ لتَتَمَحْوَرَ حول خِطَابٍ مُحَنَّطٍ لا يَتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ، ولتَجْتَرَّ مُعْطياتِهَا في رِحْلةٍ دَاخِليّةٍ مَعْزُولَةٍ تَتَضَخَّمُ فيها رُؤىً ذاتيّةٌ عبْر الانْعِكاساتِ المُتَكَـرِّرَةِ على مرايا الأوهامِ النَّرْجسيّة والإنْشائيّاتِ البلاغيّة والمُحَسِّنَاتِ اللّفْظيّة. ولذا فـإنّ ما نَشْهَدُهُ – بين الفَيْنَةِ والأُخْرَى – من دَعواتٍ مُنَادِيَةٍ بأولويّةِ «الدِّراسات الإنْسانيّة» تُمَثِّلُ مَظْهَراً من مَظَاهِرِ «العَدَاءِ الخَفِيّ» لـ«مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية»؛ فالتَّعَلُّقُ هنا بـ«العلوم الإنْسانيّة» ليس «تَعَلُّقَ حَاجَةٍ» ولكنّه «تَعَلُّقُ وِجْدَانٍ» لثقافةٍ انْغَرَسَتْ عبْر تاريخها في «ثقافة اللّفْـظ»، واخْتَارَتْ الطَّريـق الأسْهل في التّعامُلِ مع قضاياها، ولذا فـإنّ هذه «الإشْكَاليّة» تجدُ جُذُورَهَا في أعْمَاقِ «العَقْلِ العربيّ» الذي ما زال أسير انْفِعالاتِه وأوهامِه وتخيُّلاتِه.

وأمّا عندمـا يَنْدَفِعُ «الخِطَابُ الدَّعَويُّ» في مَظَاهِرِهِ المُخْتلفة إلى «الشَّحْنِ النّفْسيّ» للشّبـاب وتوجيه فِكْرِهِمْ وطاقاتِهم، فإنّه الأكْثر إهْمـالاً لطُرُوحاتِ «التّنْمية» ومُوَاصَفَاتِهَا المُعَاصِـرَةِ حيـث يَنْفَعِـلُ بالأحْـدَاثِ والابْتِـلاءاتِ دون تَعَمُّقٍ عملـيٍّ في أسْبَـابِ البلاء، ويَتَحَصَّنُ بقَدْرٍ كبيرٍ من الارْتيابِ والمُمَانَعَةِ أمام المُعْطيات العِلْميّة والإنْجازات التّقنيّة، ويُكَرِّسُ أساليب الحِفْظِ والرِّواية والإيقاعات اللّغويّة، ويتجاوزُ طبيعة الاحْتياجات النّفْسيّة

والمَعْنويّـة والفِكْريّـة اللازِمة لـ«الحركة العِلْميّة والتّقنيّـة»، ويَتَدَثَّرُ - في أغْلب الأحْوال - بـرِدَاءِ المَواعِظِ المَكْـرُورةِ والقَوَالِبِ التّقْليديّةِ والشَّحْنِ العَاطِفـيّ والعُمُوميّاتِ التي تَفْقِدُ تَأْثيرهـا - في الغالِب - حـال اصْطِدَامِ سامعيهـا بوَاقِعٍ يَنْتَصِبُ أمامهم بـكُلِّ تحدّياته، ويَعْكِسُ كُلَّ عَجْزِهِمْ في التّعامُلِ معه. وهكذا تغيبُ عن طُرُوحاتِ «الخِطَابِ الدَّعَويّ» - إلى حَـدٍّ كبيـرٍ - عَنَاصِرُ «التَّحْفيز» نحو «التّنْمية والبِنَاء» عبْر تَبَنِّـي «الفِكْر العِلْميّ»، والتَّوجُّه إلـى «ميادِيـن التّقْنية»، ومَنْـحِ «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنيـة» الأولويّة القُصْـوى عبْر الدَّعْمِ والتّنْويهِ بأبْعَادِ المَثُوبَةِ النّاتِجَةِ - دُنْيويّاً وأُخْرويّاً - عن ذلك النّوْعِ من المُثَابَرَةِ والجُهْد.

ومـن المُهِـمّ أنْ نُسَجِّلَ هنا أنّ ظَاهِـرَةَ «التَّصَادُمِ مع الحقائِـق العِلْميّة» وتَسْفيهِهَا، ورَفْضَ التّعامُـلِ مـع مُعْطياتِها المُسْتَقِـرّةِ ونتائِجِهَـا الثّابِتَة، هي - في الوَاقِـع - تَرْسيخٌ لذلـك «العَدَاءِ الخَفِيّ» الكَامِـنِ في «الوِجْدَانِ العربيّ» لهذه «المَنْظُومَةِ» التي لم نُسْهِمْ في صِناعتِهـا وتَطْويرِهـا، ولكنّها تَأْبَـى إلاّ أنْ تَقْتَحِمَ حياتنا ومَأْكَلَنَـا واتّصالاتِنا واقْتصادَنا وتفاعُلاتِنـا الاجْتماعيّـة والفِكْريّة، ويكـونُ مَلاذُنَا الوهميّ - عادةً - هـو ذلك «المَوْقِف الانْتقائـيّ» الذي يُعَطِّلُ «عَجَلَةَ التَّطْوير» فـي حياتنا، وإنْ كنّا - في نهاية المطاف - نُقَدِّمُ «التّنَـازُلاتِ الاسْتِهْلاكيّة» تحْت وَطْـأةِ الحاجة ومُقْتضياتِ الحياة وعِشْـقِ الرّفاهية، ولنا عِبَـرٌ فـي أمْثلةٍ تَبْدَأُ مـن «اللاّسلكي» والسَّيّـارة، وتصلُ إلى «كاميرا الجَـوَّال» وتَطْبيقات «الآيفون» وفضاءات «الإنترنت»، ويَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُون. ولا يَتَمَثَّلُ ذلك «العَدَاءُ الخَفِيُّ» فقط فـي غِيَابِ الطّرْحِ القـويّ والأصيل لـ«المُقَوِّمَاتِ الثّقافيّة» لـ«الحركـة العِلْميّة والتّقنيّة» في مَواعِظِنَا وإعْلامِنا وتَعْليمِنا وحَرَاكِنَا المُجْتمعيّ، ولكنّه - أيضاً - يَتَمَثَّلُ في غِيَابِ «الإرادة السِّياسيّـة» و«القُوَّة الإجْرائيّة» القَادِرَتَيْن على نَقْلِ تلـك «المُقَوِّمَاتِ الثَّقافيّة» ومُتطلَّباتِها العمليّة من عَالَمِ الـورق والمؤتمرات والبَهْرَجَةِ الإعْلاميّة إلى وَاقِعٍ يَتَحَرَّكُ على الأرْض، ويَتْرُكُ بَصْمَاتِهِ على حيوات الأفْراد وحركة المُجْتمع.

أَدْري أنّ (النَّاس أَعْدَاء ما جَهِلُوا)، ولكن «العلوم والتّقْنية» أَصْبَحَتْ ضَرورةً حتميّةً لا منـاص عنها، ممّا يُوجِـبُ تَقْليصَ مِساحة ذلك «العَدَاءِ الخَفِـيّ»، واسْتِيعابِ «الخِطَابِ

الدَّعَـويّ» لعناصِـرِ «الفِكْـرِ التّنْمَويّ»، وتوليـدِ «التَّفاعُـلِ الإيجابيّ» مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التي أَصْبَحَتْ قضيّة «حياةٍ أو موتٍ» للأُمّة بحيث يكون «الخِطَابُ الدَّعَويّ» قادِراً على مُوَازَنَـةِ «المَصَالِح والمَفَاسِد» على أَرْضِ الوَاقِع، ولكي يكون في مَوْقِعٍ ريادِيٍّ مُعَاصِرٍ تَتَجَلَّى فيه صُوَرُ الاهْتمام العَصْريّ بما يَنْفَعُ الإنْسان، ويُعَمِّرُ الأوطان.

وأمّـا أهميّـةُ دَوْرِ «الخِطَابِ الدَّعَويّ» فإنّهـا لا تَخْفَى على أحـدٍ؛ فللدُّعاة مُرِيدوهم ومُحِبُّوهـم، وبالتّالـي يَتَمَتَّعُـون بقُدْرةٍ علـى التّأْثير كبيرةٍ ممّـا يَجْعَلُ دَوْرَهُمْ فـي تَشْكيلِ «الرُّؤيـة التّنْمَويّـة»، وتَحْفيـزِ «الحماس العمليّ»، مَطْلُوباً فـي «التّفاعُـلات المُجْتمعيّة»؛ ولأنّ «التّغْيير الثّقافـيّ» هـو أصْعب أنْـواع التّغْيير، فإنّ تَكَاتُـفَ جُهُودِ مُخْتلـف الشّرائح والاهْتمامـات ضَروريٌّ لإحْـدَاثِ تلك «النَّقْلَة النَّوْعيّـة» المَطْلُوبة في فِكْـرِ الأُمّة وثقافتِها وإسْهاماتِهـا. بطبيعـة الحال لا يَنْبَغِي – في هذا السِّيـاق – أنْ نَغْمِطَ حَقّ عَدَدٍ مُتزايدٍ من المُثقّفيـن والمُفكّريـن والدُّعَاة فـي «السّاحَة الثّقافيّـة العربيّة» وهم يَبْذُلُـون جُهُوداً في مجـالات «التّوعية العِلْميّة» في مُحاولاتٍ فَرْديّةٍ لـ«المُصَالَحَةِ مع العلوم والتّقْنية»، وحِرْصٍ على «التّفاعُلِ الإيجابيّ» معها، ومَنْحِهَا الأولويّة التي هي أَهْلٌ لها، ولكن تَغِيبُ عن الميدان – في مُعْظَمِ الأحْوال – «الإرادةُ السِّياسيّةُ» الفَاعِلَة، والحركةُ المؤسَّسيّةُ النَّشِطَة، والرُّؤيةُ الإسْتراتيجيّةُ الحصيفة، والإجْراءاتُ العمليّـةُ المُؤثِّرَة، لإحْدَاثِ التّأْثير العميق المَنْشُود على مُخْتلف الأصْعدة الثّقافيّة والتّعْليميّة والبَحْثيّة والإعْلاميّة والاجْتماعية وغيرها.

وتَبْقَـى قضيّةُ «المُصَالَحَةِ مع العلـوم والتّقْنية» هَاجِساً مُقِيماً، وهـي في تَرَاكُمَاتِهَا تُؤكِّدُ الحاجة إلى تلك «الثّقافة التّنْمَويّة» التي تُصَادِقُ «العلوم والتّقنية»، وتُصَافِحُ أبْعَادَهَا، وتتصالـحُ مع فِكْرِهَـا، وتُسَاعِدُ علـى نَشْرِهَا؛ وهي فـي تداعياتِها تَسْتَوْجِـبُ الدَّعْوَةَ إلى «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَويّةٍ» شَامِلَةٍ تَهْتَمُّ بتَأْصيلِ «تفاعُلات إيجابيّة» تُمَثِّلُ «الاسْتِجَابَةَ المُلائِمَةَ» في حياة «الإنْسان المُسْلِم» لـ«تحدِّيات» عَصْرِه، وتَحْرِصُ على تَعْزيزِها وتَطْويرِها، وتتمكَّنُ من توليدِ «الدَّفْعِ الذَّاتيّ» للتّصدّي – بحيويّةٍ وفَاعِليّة – للمُشْكلاتِ المُعَاصِرَة.

٥-٥-٢) المُنْطَلقاتُ الدِّينيّةُ و«الفِكْرُ التَّنْمَويّ»:

عندما نجدُ أنّنا نَتَحَصَّنُ بقَدْرٍ كبيرٍ من الارْتِيابِ والمُمَانَعَةِ أمام «اليقينيَّات العِلْميّة» من قوانين وسُنَنٍ اسْتَقَرَّتْ في «المَعْرِفَةِ الإنْسانيّة» على الصّعيدِ النّظريّ والبُرْهَانِ التّجْريبيّ، فإنّ علينا أنْ نُراجِعَ مَنْظُومَتَنَا الفِكْريّة والثّقافيّة التي فَشِلَتْ ليس فقط في التَّصَالُحِ مع «العلوم الحديثة» والتّآلُفِ مع «شُرُوطِ التّقْنية المُعَاصِرَة»، ولكنّها أيضاً فَشِلَتْ - ابْتداءً - في أنْ تَنْصَاعَ لمُقْتضياتِ «الخِطَابِ الإسْلاميّ» الصّحيح الدَّاعِي إلى التّدَبُّرِ في آياتِ الكَوْن، والتَّفَكُّرِ في السُّنَنِ الإلهيّة التي لا تَتَحَوَّلُ ولا تَتَبَدَّلُ، والأَخْذِ بأسْبَابِ القُوّةِ التي تَحْمِي قِيَمَ الأُمّة وحَقَّهَا في الحياة الكريمة. إنّ مِثْلَ ذلك «المَوْقِف الاسْتِعْلائيّ» على مُعْطياتِ «العلوم والتّقْنية» وأدبيّاتها وفِكْرِهَا، الذي يُمَيِّزُ الكثير من الطُّرُوحَاتِ الدَّعَويّة، تَجْعَلُنَا نتساءَل عن مُؤشِّرَاتِ خِطَابِنَا الدَّعَويّ، وهل اسْتطاع فِعْلاً أنْ يتناغم مع طبيعة «تحدِّيات العَصْر» و«مَسْؤوليّات المُسْتَقْبَل»، أَمْ أنّه أَبْقَى على شَكْلِهِ التُّرَاثيّ الوَعْظيّ ليُنْتِجَ مزيداً من «الدُّعَاة»؟، ولكن من حَقِّنَا أنْ نَسْأَلَ في زمن «الإنْتاج والتّنْمية»: (وماذا عن «البُنَاة»؟).

إنّ من أخْطر ما يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ للأُمّة، هو «النَّظْرَةُ الدُّونِيّةُ» للعلوم والتّقْنية التي تَنْتَقِصُ من شَأْنِهَا، وتَدْفَعُ بها إلى مَواقِعَ في أدْنَى قَائِمَةِ الأولويّات؛ ممّا يقودُ إلى هَيْمَنَةِ اهْتِماماتٍ أُخْرى قد يجدُ كثيرٌ من الشَّباب في ثناياها مَزَالِقَ تَصْرِفُهُمْ عن الانْخِرَاطِ الجَادِّ في مَعْمَعَةِ «العلوم والتّقْنية» وبِنَاءِ الوطن، وتَدْفَعُ بهم إلى الانْغِمَاسِ في متاهاتٍ إنْشائيّةٍ عقيمةٍ، والتَّخَبُّطِ في مداراتِ تَدْميرٍ ذاتيٍّ من الإحْبَاطِ القَاتِل، والحماسِ الأهْوج، والانْغِلاقِ المُرَوِّع، والاجْتِرَارِ المُشِين، والانْكِفَاءِ على الذّات، وتَعْميقِ حالة الضَّعْفِ السّائِدَة.

من المُهِمّ - إذاً - أنْ يكون الدُّعَاةُ والمُثقّفون ورِجالُ الفِكْرِ والإعْلام سَنَداً متيناً لـ«الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» عبْر الدَّعْوَةِ إلى احْتِرَامِ مَنْهَجِهَا، وتَأْصيلِ ثقافتها، وتَفْعيلِ مُقْتضياتِها، واسْتِقْطَابِ القُدْرَاتِ والمهاراتِ لها. ويقعُ «الخِطَابُ الدَّعَويّ» في قَلْبِ تلك العمليّة فهو مُطَالَبٌ بأنْ يَتَحَرَّكَ في اتِّجَاهِ «التّنْمية»، ويَسْتَجيبَ لمُتطلَّباتِها، ويَسْتَأْنِسَ بتفاعُلاتِها، ويَخْرُجَ من ساحة «التّنْظيرِ والكلام» إلى ساحة «الفِعْلِ والالْتِحَام» مع «الفِكْرِ

التّنْمَـويّ» ليتناغم بذلك مـع «رُوح العَصْر». إنّه مـن المُهِمّ، لمُسْتَقْبَـل الأجْيال وازْدهار الأحْوال، أنْ نُحْدِثَ «نَقْلَةً نَوْعيّةً» في تَفْكيرِنَا وتفاعُلاتِنا من حالةِ «الحياةُ كَلِمَةٌ» إلى حالةِ «الحياةُ فِعْلٌ» لتَتَحَرَّكَ الإنْجازاتُ على الأرْض، وتتدافعَ مُعْطياتُ العمل المُتْقَنِ في مُخْتلف أوْجُهِـهِ المُعَاصِرَة، وتَزْدَهِـرَ العطاءاتُ الوطنيّة في مجالات «العلـوم والتّقْنية» في حركةٍ مُجْتمعيّةٍ نَشِطَةٍ يتفاعلُ معها «الخِطَابُ الدَّعَوِيّ» بإيجابيّةٍ، ويُسْهِمُ في صِياغتِها وتَشْكيلِها والارْتِقَاءِ بها - فِكْراً وعملاً وإنْجازاً -.

إنّ مـن أهـمّ مُقَوِّمَاتِ «الثَّقافة التّنْمَويّـة» قُدْرَتَهَا على تَأْصيـلِ الإنْتاجيّة والعمل في تلاقُـحٍ وتَوَازُنٍ بين وِجْدَانِ الأُمّة وفِكْرِهَا من ناحيةٍ، وبين شُرُوطِ «الفِكْرِ العِلْميّ» وضُغُوطِ «التّقْنية» من ناحيةٍ أُخْرَى، لتجد «العلوم والتّقْنية» تُرْبَتَهَا الخِصْبَةَ المُسْتَنِدَةَ إلى توظيفِ واسْتِدْعَـاءِ تلك المُنْطَلقـاتِ الأصيلةِ في «الفِكْـرِ الإسْلاميّ» المُؤسَّسَةِ علـى طَلَبِ «العِلْمِ النَّافِـعِ» و«عِمَارَةِ الأرْضِ» و«العملِ الصّالِـحِ» و«الإحْسَانِ» الذي من أبْرز معانيه «الإتْقَان»؛ وأمّا ذلك «التَّزَاوُجُ النَّهْضَويّ» فقد عَبَّرَ عنه زكي نجيب محمود عندما تَكَلَّمَ عن «النُّهُوض»، وأشار إلى أنّه: (لن يَتَحَقَّقَ إلاّ إذا جاءَتْ الحَوافِزُ من الدِّين والوسائِلُ من العِلْم)[٢٠].

وأمّـا الدُّعَـاةُ فمَسْؤوليتُهم في هـذا المجال كبيـرةٌ؛ لأنّه من باب «الأَخْـذِ بأسْبَابِ القُوَّة» في «الأَلْفيّة الثّالثة»، وهو أمْرٌ يُصْبِحُ في حالات الضّرورة المُلِحَّة «فَرْضَ عَيْنٍ» على الأُمّـة بأسْرِهَا، ويرى زين العابديـن الرّكابي - ضمْن شُرُوطِ توفير بيئةٍ مُوَاتِيةٍ لـ«الثَّقافة العِلْميّـة» - أنّ أحـد هذه الشُّـرُوط: (اسْتِصْحَـابُ مَنْطِقِ القرآن في التّحْريضِ المُكَثَّفِ المُتَلاحِقِ علـى التّعَامُلِ الذّكيّ البصير مع سُنَنِ الكَوْنِ ومظاهـره وحركته، واسْتِصْحَابُ مَنْطِقِ القرآن في الدَّفْعِ على التَّعَرُّفِ على «الكَيْفِيّات»:

أ) ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠]؛

ب) ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩]؛

ج) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥]؛

إنّ هذا النَّصَّ القرآنيّ المُحَرِّضَ على التَّفْكير، وعلى التَّعرُّفِ على الكَيْفِيّات، والدَّاعِي إلى تَسْخيرِ ما في الكَوْن...هذا النَّصُّ القرآنيُّ لم يُخَاطَبْ به - فحسبُ - جاليليو وبيكون ونيوتن وآينشتاين وجيمس وات وستيفن جراي وكارل لينس وكلارك ماكسويل وكونراد رونتجن، بَلْ خُوطِبَ بذلك النَّصّ: عبد الله وأحمد وخالد ومحمود ومحمد وعلي وفيصل وعبد الرحمن وعمر، وسَائِر العرب والمُسْلِمين)[١٤].

هذه الرُّؤيةُ التي ترى في «الالْتِحَامِ العُضْوِيّ» بين «الدِّين» و«العِلْم» ضَرورةً حياتيّةً وتَنْمَويّةً لا مناص عنها تتأكَّدُ لدى عبد الغني عبود بقوله: (ومن ثمّ يكون خطأ ما أُشِيعَ بيننا، خَاصّةً في عَالَمِنَا العربيّ، من ضَرورة عَزْلِ الدِّين في رُكْنٍ ضَيِّقٍ من أرْكان الحياة، هو رُكْنُ العِبَادات أو «الشَّعَائِر»، إذا أُرِيدَ لنا أنْ نَتَقَدَّمَ، وأُرِيدَ لخُطَطِنَا التَّنْمَويّة أنْ تُحَقِّقَ النّجاح، إذْ ليس من شَأْن الدِّين - أيُّ دينٍ - أنْ يعيش حبيس الضَّمير والوِجْدَان، بَلْ من شأنه أنْ «يُوَجِّهَ» - من خلال هذا الضَّمير والوِجْدَان - «كِيان» الإنْسان كُلّه وِجْهَةً مُعَيَّنَةً في الحياة)[٢٢]. وتَتَعَمَّقُ هذه الرُّؤيةُ لدى عبد الله بن بَيَّه عندما يَصِفُ حال الأُمّة الإسْلاميّة فيقول إنّها: (تعيشُ أزْمَةً حضاريّةً وفِكْريّةً جَعَلَتْهَا في خُصُومَةٍ مع التّاريخ ومع العَصْرِ على حِسَابِ التّنْمية الرُّوحيّة والنَّفْسيّة والإنْسانيّة والاقْتصاديّة؛ ما أَفْقَدَهَا الانْسِجَامَ الضّروريّ بين الضَّميرِ الدِّينيّ والأخْلاقيّ والوَاقِعِ الإنْسانيّ المُعَاصِر، فلم تَسْتَطِعْ المُواءَمَةَ بين كُلِّي الزَّمَان وكُلِّي الشَّرَائِع والإيمان)[٨١].

إنّ قضيّة «العلوم والتّقْنية»، ومُسْتلزماتِها الثّقافيّة والمُجْتمعيّة، جديرةٌ بأنْ تُصْبِحَ هَاجِساً يوميّاً في تفاعُلاتِ الأُمّة لأنّها - دون مُبَالَغَةٍ - هي «القضيَّةُ الأَهَمّ»، فهي - بحَقٍّ وحَقِيقٍ - «الطَّريقُ إلى المُسْتَقْبَل الواعِد»، وهي «قضيَّة جِهَادٍ» كما وَصَفَهَا محمد صلاح الدّين بقوله: (يَتَوَجَّبُ علينا أنْ نقول لشبابنا إنّ «الجِهَاد الحَقّ» ليس بحَمْلِ رَشّاشٍ أو قُنْبلةٍ والذّهَابِ إلى أفغانستان أو العراق أو فلسطين، فلكُلِّ بلدٍ أهْلُهُ القَائِمون بشُؤونه، ومن الأولى ألاّ يكون الجِهَادُ بالفَسَادِ في الأرْض، وسَفْكِ الدَّمِ الحَرَام، وتَرْوِيعِ الأمْنِ، وتَفْجيرِ المُنْشآتِ، فكُلُّ ذلك جُرْمٌ عظيمٌ، إنّما «الجِهَادَ الحَقّ» والاسْتِقْلالَ والسِّيادة ببِنَاءِ

الوطـن، وتَعْزيـزِ الاقْتصاد، والتّفـوُّقِ في الصِّنَاعَـة، وسَبْقِ الآخَرين فـي الإنْتاج والعلوم والمُخْترعات)[٨٢].

وأمّـا الحقيقـةُ الجَليّةُ، فهـي أنّه لا تُوجَدُ قضيّـةٌ تُحَدِّدُ مُسْتَقْبَل مـا يَرْبُو على مليار مُسْلِـمٍ مِثْلَ قضيّة «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» التـي يَصْطَدِمُون بها في مُخْتلف أقْطارِهم وأقاليمِهـم لتَعْزِلَهُـمْ عن مُتطلَّبـاتِ عَصْرِهم، وتَصْنَـعَ حَائِلاً كثيفاً بينهـم وبين شُرُوطِ زمنِهم؛ ولا تُوجَدُ قضيّةٌ قَادِرَةٌ على إحْدَاثِ «النَّقْلة النَّوعيّة» اللازِمة في حياة ذلك الحَشْدِ البشـريّ المُتَلاطِمِ بأفْـكَارِه، والمُتَصَارِعِ بخِلافاتِه، والمُبَدِّدِ لطاقاتِـه، إلاّ قضيّة القُدْرَةِ على خَوْضِ غِمَارِ «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» بفَاعِليّةٍ وحيويّةٍ، وهذه القُدْرَةُ - عند توافُرِها - هـي الكفيلـةُ - بإذْن الله - بأنْ تَنْتَشِلَ الأُمّة من وَاقِعٍ أَصْبَحَـتْ فيه مَغْلُوبَةً على أمْرِهَا، وغريبةً على زمنِها.

إذا كانـتْ هذه القضيّة بتلـك الأهميّة القُصْوى، فحريٌّ بأنْ يَتَحَوَّلَ الاهْتِمَامُ بها إلى «تَعْبِئَـةٍ عَامَّةٍ» للطّاقـات، و«اسْتِنْفَارٍ دَائِم» للهِمَـم، لتُصْبِحَ بالفِعْلِ «قضيَّـةَ جِهَاد»؛ فهي قضيّـةُ «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة، وهنا تَتَحَوَّلُ «فُرُوضُ الكِفَايَة» إلى «فُرُوضِ عَيْنٍ»، وتُصْبِحُ «القضيَّـةُ الأَهَمُّ» في حيـاة الأُمّة هي تَأْمين تلك «القَاعِدَةِ العِلْميّـة العريضة» التي تَتَغَلْغَلُ في «نسيج المُجْتمع»، وتَمْنَحُهُ قُوّةَ الدَّفْعِ الفَعّالَة، وتُسْبِغُ عليه ذلك التَّرَاكُمَ الخِصْبَ الذي تَصْنَعُـهُ آليّـاتٌ حَاذِقَةٌ على مساراتِ «الإنْجـاز العِلْميّ - التّقنيّ» الكفيلـة بتَحْقيقِ مَفْهُومِ «الاسْتِخْلاف في الأرْض».

٥-٧) المَدْخَلُ إلى «الثّقافة العِلْميّة»:

إنّ اعْتِبَـارَ قضيّـة «التّحـدِّي العِلْميّ - التّقنـيّ» «قضيَّة جِهَادٍ»، كمـا وَصَفَهَا محمد صـلاح الدّين[٨٢]، هو دَعْـوَةٌ في محلِّها، وهو التّوجُّهُ الجَادّ الذي يتفاعلُ مع قضيّة «العلوم والتّقْنيـة» بكُلِّ صِـدْقٍ وحيويّةٍ وفْق أولويّتِها وريادتِها في هـذه المَرْحلةِ الحَرِجَةِ من تاريخ الأُمّـة. من الجَلِيِّ أنّه لن تَتَحَقَّقَ تلك «النَّقْلَـةُ النَّوْعيّةُ» - في «المُجْتمعات العربيّة» - على

مُخْتلـف الأصْعِـدَةِ إلاّ إذا اسْتَقَرَّتْ «مَنْظُومَةُ العلوم والتّقْنيــة» كـ« عمودٍ فِقْريٍّ» لتفاعُلاتِه واهتماماتِه ومُنَافَسَاتِه، دَافِعَةً بذلك إلى تّغيُّراتٍ جِذْريّةٍ في القُدْرَاتِ والمهاراتِ والمَوارِدِ؛ ولكي تَنْعَكِسَ تلك الرُّؤيةُ على كُلِّ طُرُوحاتِنا وإسْتراتيجيّاتِنا، فإنّه يَنْبَغِي حَشْدُ الجُهُودِ نحو «القضيّــة الأَهَمّ» في مُسْتَقْبَلِ الأُمّة. وفي هذا السِّياق يَحِقُّ لنا أنْ نَسْأل: (أين ذلك النَّهْجُ من خِطَابِنَا الدَّعَوِيّ، وخُطَطِنَا العمليّة، ومُمَارَسَاتِنَا اليوميّة، وثقافتِنا الجماهيريّة؟، وأين هــي تلك «الاسْتراتيجيّةُ الشَّامِلَةُ» اللاّزِمَة لبَلْوَرَةِ تلك الرُّؤى المصيريّة وتَفْعيلِ مُقْتضياتِ «الثَّقافة التّنْمَويّة» في تَعْليمِنا وإعْلامِنا وتفاعُلاتِنا المُجْتمعيّة على طريق «المُسْتَقْبَل» بكُلِّ شُرُوطِـهِ وتحدّياتِهِ ومعاييرِه؟، ومــا «شُرُوطُ الثَّقافة» التي يَنْبَغِــي أن تُمَثِّلَ «عموداً فِقْريّاً» تَتَمَحْوَرُ حوله «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» لتتمكَّنَ من إحْدَاثِ «التَّحَوُّلات الكَيْفِيّة» اللازمة في أنْمَاطِ التّفْكير، و«التَّغَيُّرَات السُّلُوكيّة» المَطْلُوبة في تفاعُلاتِ الحياة، و«القِيَم العمليّة» المُتناغِمَة مع «المُسْتَجِدَّاتِ الاجْتماعيّة» و«التَّحَدِّياتِ المُعَاصِرَة»؟).

إنّ النَّظْــرَةَ الفَاحِصَةَ لأحْوال «المُجْتمعات المُتَقدِّمَــة»، وتَطَوُّرِ مَنْظُومَتِهَا الحياتيّة، تُؤكِّـدُ أنّــه كُلّما اتَّسَعَتْ «القَاعِـدَةُ العِلْميّــة – التّقنيّة»، زاد النّشاط الفِكْـريّ والاجْتماعيّ والثقافــيّ والإنْتاجــيّ، وتَوَطَّدَتْ صِلاتُ المُجْتمــع مع عَصْرِه، واكْتَسَبَ الثِّقَــةَ في قُدْرَاتِه، وانْخَرَطَ في التّفاعُلاتِ الحيويّة المُجْدية، وتَعَزَّزَتْ في سُلُوكيّاتِ أفْرادِه معاني الانْضِبَاطِ والعمــل والإبْداع، وتَحَــرَّرَ مَنْسُوبوه من نَوَازِعِ «الإحْبَاطِ» وهَوَاجِسِ «الغُرْبَةِ الفِكْريّة» التي تَدْفَــعُ إلــى حماقــاتٍ لا تُحْمَدُ عُقْبَاهَــا، وتُشْغِـلُ أهْلَهَا بتَأْويــلاتٍ فَاسِـدَةٍ، ورُؤىً أحَادِيّةٍ، ومفاهيــم سقيمةٍ؛ فالحقيقةُ التي لا مِرَاءَ فيها أنّ ابْتِعَادَ المُجْتمع عن المَنْهَجِ القَادِرِ على تَأْصيــلِ «المَنْظُورِ التّنْمَويّ» وتوطيدِ دعَائِمِه، يَدْفَعُ به إلــى التّوَغُّلِ في إشْكَالاتٍ تَنْظيريّة، وجَـدَلٍ عقيم، وصِرَاعَاتٍ عَبَثِيّةٍ، وأوهامٍ بَاليــةٍ، ليَسْقُطَ في فَخِّ «الفَرَاغِ الحياتيّ» – فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وسياسيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً –.

وأمّــا ذلك «المَنْهَــجُ» النّاجِعُ لعِــلاجِ أدْوائِنَا التَّنْمَويّــة وإشْكَالاتِنَــا النّهْضَويّة، فإنّه يَتَمَحْــوَرُ حول «ثقافــةٍ عِلْميّةٍ» وَاسِعَةِ النِّطَــاق والتّأْثير هي – في الوَاقِــع – هَمٌّ وطنيٌّ لدى الأُمَــمِ المُتَطَلِّعَــةِ إلى بِنَاءِ قَاعِدَةٍ عِلْميــةٍ رَاسِخَةٍ وتَأْسيسِ صَرْحٍ تقنــيٍّ مكين. ولا شَكّ أنّ

عمليّـة «نَقْل التِّقْنية»، وقضيّة «التّنْمية المُسْتَدَامَة»، ومُشْكلات «إدارة المَعْرِفَة»، هي أُمُورٌ خَاسِـرَةٌ - بامْتيـازٍ - إذا لـم تَتَدَثَّرْ بدِثَـارِ «الثَّقافة العِلْميّة»، ولم تتضامـنْ مع مُنْطلقاتِ «الوَعْـي العِلْمـيّ»، ولم تَنْطَلِقْ من النّجاح في القضاء على ظَاهِـرَةِ «الأُمِّيّة العِلْميّة». ومن ذلـك المُنْطَلَقِ فإنّه يَنْبَغِي أنْ لا نَسْتَغْـرِبْ من المَوْقِعِ الخَجُولِ الذي تَحْتَلُّهُ «الأُمّةُ العربيّةُ» علـى خريطة «التّنْمية والمَعْرِفَةِ والعلـوم والتّقْنية»، فهو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لإهْمَالٍ طويلٍ لقضيّةِ «الثَّقافـة العِلْميّـة» وتَأْصيلِهَـا فـي «البِنْيَةِ الثَّقافيّـة» حيث أَمْضَـتْ مؤسَّسَاتُنَـا التّعليميّة والثّقافيّـة والإعْلاميّة عُقُوداً من الزَّمن تتباكى عليها، وتَتَغَنَّى بها في كُلّ مُناسبةٍ ومَحْفَلٍ، وتَخْطُـبُ وِدَّهَا في كُلِّ مقامٍ ومقـالٍ، ولكن العطاء بَقِيَ هزيلاً ومُشَتَّتـاً في جامعاتِنا ودُوُرِ نَشْرِنَـا وفَعّاليّاتِنـا الثّقافيّة واهْتماماتِنا الفِكْريّة؛ ليَعْكِسَ كُلّ ذلك حالاً مُزْرِياً من البُؤسِ الفِكْريّ، والعَجْزِ المَعْرفيّ، والتِّيهِ التّنْمَويّ.

مـا سَبَقَ مـن اعْتِبَارَاتٍ تَجْعَلُ مـن «الثَّقافة العِلْميّـة» «قَاطِرَةَ الثَّقافـة المُعَاصِرَة»، والرَّافِعَـةَ اللّازمةَ لقيام «الثَّقافة» بدَوْرِهَـا التّنْمَويّ؛ ممّا يَجْعَلُ «الثَّقافـة العِلْميّة» مِحْوَراً مُهَيْمِناً من مَحَاوِرِ «الثَّقافة التَّنْمويّة»، ومَدْخَلاً ضَروريّاً لتَفْكِيكِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، وركيزةً صَلْدَةً لبرامِجِ التّوعية والتّطْوير والمُشَارَكَة، ومُكَوِّنَاً حيويّاً من مُكَوِّنَاتِ التّفاعُلات الفِكْريّة المُعَاصِرَة. وهكذا نجدُ أنّ السُّؤال الأبْرز في إطار «هُمُوم التّنْمية» هو: (ما «الفِكْرُ» الذي يجـبُ أنْ يَرْتَعَ في «ساحات الفِكْر العربيّ» ليكون مَعْلَمَاً أساسـاً للنَّهْجِ المَطْلُوب، والخُطّةِ المَنْشُـودَة، والمُمَارَسَاتِ اللّازمَة، والثَّقافةِ السَّائِـدَة، والإسْتراتيجيّةِ الشَّامِلَة؟). يَتَّضِحُ - عبْـر كُلِّ مـا طَرْحَنَـاهُ - أنّ الإجابة عن ذلـك السُّؤال تعودُ بنا - بالضّـرورة - إلى تلك «القضيَّـة الغَائِبَة»، وهـي قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّـة»، وضَرورة أنْ تَحْتَـلَّ «المَوْقِعَ الرِّياديّ» فـي «مَنْظُومَـةِ الثَّقافـة التّنْمَويّة»؛ ولـذا فإنّ الحديـث عن «الثَّقافـة العِلْميّة» هـو مِحْوَرُ الفُصُولِ التّالية.